من الترجمة إلى التعريب

أنطون مقدسي

في البحث عن موقع المشكلة:

لا ادري كيف تصور الموضوع ذلك الذي اقترحه او وضعه. فالصياغة التي بين ايدينا (المشكلات الخاصة بالترجمة الادبية) ركيكة، فكريا وبيانا، تطرح - ربما بسبب من ركاكتها - أكثر من سؤال، الجواب عن اي منها عسير. فعلام مثلا صيغة الجمع (مشكلات) لا المفرد (مشكلة؟) واذا كان ثمة (مشكلة) أو (مشكلات) فأين موقعها، افي الكلمة ام في العبارة ام في النص؟ قد يجيب صاحب الموضوع: على الذي يتصدى للمعالجة ان يبحث والاجوبة تستخلص من نتائج بحثه. ثمة مشكلة بدون شك. فالنصوص الأدبية - والفكرية او بالاحرى التحليلية - المترجمة المتوافرة للقارىء العربي - وهي بعدد نسبيا مرتفع - غالبا احد اثنين: اما انها مبينة ولكنها غير دقيقة واما انها دقيقة - وضمن حدود - لكن ركيكة، فكرا وبيانا، يعوزها شيء ما على اية حال يجعل من الصعب والمربك الاعتماد عليها وحدها عند وضع بحث تحليلي جاد. انها، حتى في الترجمات الجيدة، تضعف الخطوط والتلوينات الدقيقة للنص الاصلي، وكثيرا ما تطمس معالمها وتزيلها. لماذا؟ ذلك هو السؤال الذي سأحاول الاجابة عنه.

من الواضح ان المشكلة - او المشكلات - ليست في (المصطلح) هوس المشرفين عندنا على الشؤون الثقافية، جلهم ان لم يكن كلهم. اذ يجب ان تكون في العبارة او في النص ولكن كيف؟ فلغتنا، تراثا ونتاجا حديثا، ادبية بالدرجة الاولى. والنصوص التي تنشر وتدرس وتدرّس، معظمها قصة او رواية، شعر ومسرح، خبر، طرفة... وادباؤنا يؤثرون الاجناس الادبية اية كانت على التحليل، لان تلك ابداعية على حد تعبيرهم، وهذا يقتصر على تفحص ما هو قائم في الواقع. اهذا المنحى هروب من الواقع ام ترقب عالم افضل والاعداد له؟ اهو جموح في الخيال ام قصر في النظر؟

ثمة سؤال آخر قد يبدو الجواب عنه واضحا للوهلة الاولى: ما الفرق بين الادب والعلم؟ بديهي ان ترجمة قصيدة او نص سردي... يجب ان تصنف ادبية، وترجمة كتاب في الرياضيات والفيزياء.. يجب ان تصنف علمية. ولكن في اي من الصنفين نضع النقد الادبي مثلا؟ والفلسفة؟ والفكر العلمي؟ والانتربولوجيات الثقافية أو البنيوية وغيرها من نصوص العلوم الانسانية؟ ومن الذي يستطيع التقرير ما اذا كان نص افلاطون، في اغلب الحالات فلسفة ام علما ام اسطورة ام... ونص ابي حيان التوحيدي حكمة ام نقدا اجتماعيا ام وصفا....؟ ان التمييز بين العلم والادب مدرسي، يصبح منهجيا في الدراسة التحليلية، وهو في حقيقته جدي، وفي الحدود القصوى تسقط - او تكاد - المشكلة لانها محلولة او لان حلها ممتنع. فلا تعترض ترجمة المعادلة او القانون او اي نص آخر من نصوص العلم الخاص، اي التي بلغت حد التضبيع، اية عقبة يمتنع او يصعب تذليلها، يكفي ان يكون المترجم متخصصا - يجيد اختصاصه فلغة العلم الخالص تقتصر من الكلام على الحد الادنى لتستخدم رموزا - او مفردات كالرموز - اصطلاحية، بعضها مقبول عالميا والبعض الآخر يمكن مبدئيا، استبداله - اصطلاحا ايضا - بما يمكن ان يقابله في اللغة المترجم اليها. في حين ان الشعر الخالص لا يترجم. واذا ترجم بعضه، فلا تؤدي الترجمة من الاصل سوى الخطوط العريضة والمستويات الاكثر سطحية.

فالفرق بين العلم الخالص والشعر الخالص هو الفرق بين الموضوعية الكاملة - حقائقها حيادية، وقضاياها مستقلة عن الزمان والمكان، عن الذات واللسان - وبين الفرادة المنكفئة على فرادتها، تعبر عن ظرف ذاتي - زماني - مكاني وحيد في نوعه لا يتكرر وقد لا يستعاد اطلاقا.

وتقع - يجب ان تقع - مشكلة الترجمة واشكاليتها بين هذين الحدين الاقصيين حيث الكتابات المألوفة في تجربتنا كلنا ايا كان اختصاص احدنا او كانت هوايته. تقع بالاحرى في الفسحة التي يتلاقى على صعيدها - بنسب متفاوتة - العلم والشعر، واذا شئت، العقل والحس، التجريد والخيال، يتقاطعان ويتخلطان. وتلك فسحة النص بالمعنى العادي للكلمة، فلكل نص جدير بهذا الاسم شاعريته ومعقوليته.

فالشعر الخالص فوق النص، والعلم الخالص تحته: هذا لانه وحيد البعد او وحيد الخط، تتوالى عناصره - الرموز التي تنوب مناب الكلمات في النص العادي - متسلسلة بعضها من البعض الآخر بدقة منطقية صارمة، كاملة، حتمية وفي فسحة مسطحة (ذات سطح واحد) تتكون وتتلاشى مع كل عملية. ذاك لانه جمال خالص في الايقاع، في الصورة، في الكلمة،.. او في الكل، وهو بالتالي متعة

خالصة، تذوقها يكاد يكون ممتعا خارج دائرة المريدين او الهواة الضيقة. من هذا القبيل العديد من مقطوعات مالارميه الشعرية - والنثرية - وغيوم ابولينير... وفي ايامنا فيليب سوليرز في نتاجه الاخير وغيره. هذا النوع من الشعر واحيانا النثر الشعري - يتعرض لخطر الانزلاق مع اللفظية. وعندها يتدنى الى ما تحت النثر العادي.

والعلم الخالص لا يفسر لانه لا ينطوي على اي معنى يدفعك الى التساؤل عنه، بل يشرح - او يحلل اي يرد الى عناصره المكونة. وعندها يتبخر. انه قراءة للواقع تمتصه ولغة تلاشي ذاتها، فهي في درجة الصفر بسبب من خوائها، فلا يطلق عليه اسم (النص) الا مجازا او عن طريق المماثلة. وكذلك اسم (كتابة) الذي كثيرا ما يرادف اسم (نص).

وهذا، بمعنى ما، شأن الشعر الخالص: نص مستغرق في ذاتيته وظرفه بحيث يلغي النص والذات والظرف. فهو ايضا لغة بدرجة الصفر ولكن لشدة اشباعها. انه على مستوى الاحساس والذوق كالوجد الصوغي على مستوى المعنى الكلي. فلا يحلل او يشرح. ولا يفسر ايضا، بل كالوجد الصوفي يعاش دفعة واحدة. وبهذا يصبح العلم عند اكتماله تحليلا خالصا، والشعر الصافي تأليفا خالصا.

من هذه الزاوية - وهي زاوية الترجمة - تسقط التصنيفات المدرسية للنصوص ثنائية الحدين ومتعارضتها: نثر - شعر - علم - أدب. او ترتد المرتبة الثانية هي والتصنيفات المدرسية ايضا المتفرعة عنها، ومنها في الادب التمييز بين الشعر والمسرح، القصة والرواية... وفي العلم بين الفلسفة والعلم ذاته. او بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية بمختلف فروع كل منها. فالنص يشكل عندما تقرؤه - والترجمة ضرب من ضروب القراءة كما سنرى - كُلاًّ متماسك الحلقات، بوسعك، عندما تدرسه، ان تصنفه، كما يطيب لك.

ولهذا لن احتفظ من التصنيفات المألوفة للنصوص الا بواحد، هو التمييز بين النص التحليلي (المدعو فكريا - وهذا خطأ شائع) والنص الشعري (المدعو ادبيا عموما) لا لان النصوص كلها واحد من اثنين والثالث مرفوع؟ فلكل شعر خلفية تحليلية. ولكل تحليل شاعريته وشعريته. ولكن لان هذا التصنيف هو الاوضح والاعم. ومن ثم لاني سأستخدمه معيارا للتمييز بين اللغات القديمة (ومنها لغتنا) واللغات الحديثة التي تسير نحوها. وهو لهذا ضروري لفهم مرحلتنا التاريخية في مواطن قوتها وضعفها. واخيرا وبسبب مما تقدم فلأن هذا التمييز هو حيث تتجمع مشكلات ترجمة اللغات الحديثة الى لغتنا.

والتمييز هذا يطرح علي اكثر من سؤال - كما سنرى للتو - ترتد كلها الى واحد.

ما النص؟

شعاريات من النص:

النص، في مقارنة اولى ومن وجهة نظر الترجمة، كل مجموعة كلامية او لسانية اعتبرها وحدة، ايا كان حجمها، كتاب ام سطر، وسيان كانت كلاما شفويا ام كتابة، احاول نقلها من اللغة التي وضعت فيها لاجل تكميلها - واطلق عليها لغة الاصل - الى لغة اخرى. فالنص في الترجمة فسحة لقاء - او حوار اذا شئت - بين عالمين. الا انه لقاء غير متكافىء الاطراف، اذ ان احد الطرفين - النص الاصل - حيادي غير مبال بما عمل، في حين ان الطرف الثاني مدعو لان يقسم في كيانه جسما غريبا عنه - عليه ان يتقبله، يتمثله ويصبح بمعنى ما اياه. وتلك عملية خطرة كما هو معلوم. ولكنها ضرورية لتفاهم الامم، تلاقحهم وتطورهم، وعلى الخصوص تطوير اللغة التي يترجم اليها.

الترجمة بتعبير آخر عملية توحيد ومغايرة. والمشكلة - كل المشكلة - في المغايرة. اذ قد يكون المؤلف والمترجم متقاربين زمانا ومكانا، وبينهما في الوقت ذاته فاصل ثقافي او تباين في الحضارة، يباعد بينهما كليا، وكذلك القارئان للاصل وللترجمة... وبتعبير ادق فان الترجمة تبدل مزدوج في القصد: قصد النص - الاصل الذي يصبح في اللغة المنقول اليها غير ما كان عليه بذاته - واياه - وبالمقابل فان اللغة التي يترجم اليها تتمزق مع تكاثر الترجمات عن خطها الاول - او الاصيل كما نقول - في نمط تعبيرها بالدرجة الاولى ومن ثم في دلالة مفرداتها، تلي المفردات ذاتها واخيرا القواعد التي تكثر فيها الاستثناءات. فالمفردات العربية المستحدثة في نصف القرن المنصرم ستكون بالعشرات اذا احصتها لجنة بحث متخصصة. فما بالك بالتعابير التي قلدنا بها نمط تركيب الجملة الغربية؟ ومع ذلك فاللغة العربية ما تزال - والحمد لله - محافظة على هويتها التي هي الضامن الوحيد لوجودنا عربا، فالترجمة هي، بمعنى ما، النموذج الامثل للحوار بين الثقافات، هذا اذا كانت اللهم متبادلة، اي اذا كانت كل من الثقافتين تترجم عن الاخرى. واقصد هنا الحوار الذي يبدل كلا من الطرفين او يجعل كلا منهما الآخر وذاته.

هذا التبدل في القصد هو حيث يجب ان نبحث عن موقع مشكلة الترجمة، عن جذورها وعن استمالتها اشكالا. واقول مسبقا ان الدلالة التي هي هدف القصد وخط توجهه هي ايضا وبالتالي حيث تبدأ صعوبات التفاهم بين الناس - اكانت وسيلة التفاهم الترجمة ام غيرها - وحيث يجب ان تذلل ضمن حدود الامكان. والقصد فعل، هو الفعل الانساني بالذات، ايا كان نوعه. فهو الذي، اذ يضع النص، يعطيه خصائصه النوعية ومنها بالدرجة الاولى الفرادة والكلية، اي ما يباعد بين الناس وما يقرب بينهم. او ايضا حيث يتكون دياكتليك الذات والآخر.

وعلى اية حال فان الترجمة واحدة من تقنيات معالجة اللغة.. واللغة، كما يلاحظ سوسور ومارتينه وغيرهما ليست مجموعة مفردات بحيث يصبح المصطلح واحدا من صعوبات الترجمة الاساسية، بل هي بالدرجة الاولى النص الذي نقسمه تحليلياً الى جمل ومفردات واحرف، او الى وحدات صوتية واخرى شكلية وغيرها دلالية... وغير ذلك. النص موجود لساني مؤرخ وموقع، متعدد المستويات والمسافات، متعدد الدلالات والاحالات، كما سترى تعددية تظهر في مفرداته الاساسية، لكل واحدة منها تاريخها. فترجمة نص من لغة الى اخرى هي، كما قتل، اقحام عالم في آخر، تاريخ في آخر، ثقافة في

اخرى.... فعلينا كي نتمكن من الكشف عن صعوبات الترجمة واشكالاتها.

اولا ان نتعرف الى النص - ما هو واين تقع نقطة ارتكازه؟

ومن ثم ان نقوم بتحليل سريع لآليات اللغات وبناها.... لا كما يفهمها علماؤها وحسب فهذا بحث تمهيدي، وانما كما يفهمها الذين يحددون معانيها اذ يستخدمونها.

واخيرا ان نتبين موقع لغتنا - القديمة - بالقياس الى اللغات الحديثة التي ننقل عنها العدد الاكبر من كتبنا المترجمة.

بهذا قد تتضح معنا تدريجيا مشكلات الترجمة، وقد نتمكن من الكشف بالنتيجة عن بداية الطريق الى تذليلها، التي هي بداية الطريق الى التعريب. والتعريب هو في المرحلة الراهنة الهدف الاول لا للترجمة وحسب، بل للتأليف ايضا.

النص هو الواقع - اي واقع - وقد تحول في الذهن الى تصور، وفي الخيال والحساسية الى صورة (كل منها - التصور والصورة - متواجد بشكل ما مع الآخر). قد تلقى الشجاء مرارا. ويوما يستوقفك وكأنه سؤال انت ملزم بالاجابة عنه. عندها قد تؤديه بطريقة التعبير التي تفضل فهو نص. وانواع النصوص، لهذا، يعدد وسائل التعبير: القطعة الموسيقية نص، وكذلك الشريط السينمائي وايضا اللوحة المنحوتة، المعبد والقصر، الملعب والسوق، الخ.. الا ان اسم (نص) يطلق اعتياديا على الواقع البساني، بالاخص على المكتوب منه عندما يشكل كلا متماسك الحلقات. والنص يقرأ. القراءة هي المسوغ لوجوده وهي التحية تجعل منه نصا بالنسبة اليك عندما تسأله او تشعر بالحاجة الى لقائه ومساءلته.

يمكن القول بشكل اعم ان الواقع الخارجي برمته، طبيعيا كان ام انسانيا، سلسلة لا تنتهي من النصوص الممكنة - بالقوة - على حد تعبير الارسطاليين، يتحول كل منها الى نص فعلي بالفعل الانساني الذي هو فعل قراءة - أو تفسير - بالدرجة الاولى يدفع ظرف ما القارىء يوما الى تسجيل قراءته على الورق فتتجه الكتابة. وبتعبير آخر فان الوجود الانساني لسان، موقعه فسحة مثلثة الحدود او الابعاد، وهذه متلازمة ديالكتيكيا: الواقع الخارجي، اناسا واشياء، فاللسان الذي يقوله فيحوله الى نص واخيرا فعل القول يسمي الاشياء، يمنحها دلالة ومنه تستمد حركتها واتجاهها او وجودها الانساني. فالواقع بذاته، اناسا واشياء، اصم ابكم، بمعنى ما لا وجود له دون الانسان الذي يقرؤه ويؤنسه. وبالمقابل لا وجود للانسان دون الواقع حيث يجسد مراميه فيحقق وجوده.

ذلك ان اللغة ليست في واقعها المعاش، كالرموز العلمية، أداة وحسب نستخدمها كما نشاء، ليست ايضا مجموعة كلمات نربطها الى بعضها بواسطة قواعد اللغة المتعارف عليها، بل هي وجود حي هو في واقعه الكتابي مجموعة نصوص، هي التي ندرس منها مختارات في الادب وتاريخه. وكل نص من نصوصها يؤلف كلا مستقلا لحد ما، التحليل هو الذي يرده الى عناصره، العبارات، وهذه الى كلمات والكلمات الى وحدات صوتية واخرى دلالية، الى افعال واسماء واحرف او الى ما شئت من التقسيمات.

وليس النص مغفلاً كالمعادلات والقضايا العلمية، بل هو موجود لساني موقع ومؤرخ، كما قلت. وله، بوصفه كذلك، موقعه في سياق حضاري، او اذا شئت، في فسحة زمنية - مكانية، مكانته منها متناسبة مع مستواه. وبالفعل فالنص وليد تاريخ يواصله، مسجل في الكلمات والعبارات قد يرقى الى عدة قرون، وابن بيئته توحي به، تستثيره، تقدم له مادته الخام، ان صح التعبير. وكلاهما - التاريخ والبيئة - يشدانه اليهما فهو في صراع معهما ايهما يمتص الآخر. واللسان بشكل عام لا يعكس الواقع، لا بصورة بل يؤديه. والاداء، كما يعرف الكاتب بتجربته، حوار - صراع ولقاء - عراك.

والنص لهذا، متعدد المستويات والمسافات، الاحالات والدلالات كما قلت. والدلالة، حيث يتكشف النص ويبيين على انواع. فالى جانب الدلالة الصريحة والذاتية التي نطلق عليها اسم (معنى) دلالات مرافقة واخرى مضمرة. له، بتعبير آخر فسحته الشعورية وخلفيته اللاشعورية وفيها وبينها عادات الاجداد وقيمهم، طقوسهم وموقعهم من الوجود ورؤيتهم له.

فالنص العظيم عالم كامل ممتد زمانا ومكانا، سطحا هو يحيط بك، يشدك اليه، يحاول ان يمتدحك ويمتلكك؟ وانت بالمقابل تستهدف بالقراءة والشرح والتفسير والسيطرة عليه وضمه الى عالمك. قد ترفعه فتباعد بينك وبينه، وقد تحبه وتقبل عليه. على اية حال لا تستطيع ان تتخذ منه موقف الحياد الذي تقفه من المعادلات الرياضية وقضايا الفيزياء.

وثقافتك - قل وجودك انسانا - اليست، او اليس حصيلة النصوص التي قرأت والتجارب التي عشت، وهي ايضا قراءة نصوص؟!

تلك بديهية: ان العالم الانساني برمته لسان. وهو يبلغ مداه الاقصى عندما يطلب الكاتب - او الفنان... من اللسان ان يقول اللامعقول وينصاع اللسان لذلك، بهذا يتسع العالم الانساني لما يحتويه لسان. فكانط مثلا طلب من العقل في (نقد العقل النظري الخالص) وبلغة ممعنة في التجريد ما لا يطلبه الخيال الملحمي من الاساطير والاحاجي ومغامرات العمالقة وهو اولا ان يقول: من هو وما حدوده؟ ومن ثم ان يقول: ما الذي يجب علي ان اعمله وما هو آتي؟ واراد من الاجوبة ان تكون دقيقة وموضوعية كحقائق نيوتن. والعلماء من مقياس انشتين وهيزنبرغ، ده برويل ودبراك.... يطلبون من اللسان والرموز ما لا يتصور اقصد ما لا تطاله الحواس حتى بالمجهر الالكتروني وهو اللامرئي واللامسموع في بنيته وحركاته، نظمه وخط سيره.... فالنسبية وعلائق الارتياب، الميكانيك الكمي او التموجي، المقصور الحراري ونقصه، المادة واللامادة.... لا ندري اهي اساطير ام حقائق، صور ام واقع.

او لم يطلب الحلاج وابن عربي من اللسان ان يقحم الطبيعة في ما بعدها وان يجعل من الغائب في جوهره حاضرا بيننا؟

النقاد والدلالة:

ومفارقة النص ان له جانبا موضوعيا هو الذي تشدد عليه اليوم

العلوم الانسانية. لا لانه يستقل فور نشره عن صاحبه ليصبح ملك القراء والتاريخ وحسب - فهذا امر لاحظه الفكر الانساني منذ الاصل - بل بالدرجة الاولى لانه - بذاته - كيان خاص مستقل، او يستطيع ان يستقل عن كل ما عداه. فهو يأتي الى الوجود ويعيش فيه تاريخا بوصفه عالما له وقائعه ومنعطفاته، علائقه وابطاله، له نقطة انطلاق وغاية يسعى نحوها. وهذا ما جعل البنيوية تسقط في دراستها النقدية للادب والاساطير، الطقوس والممارسات الاجتماعية.... على الخصوص في الانتربولوجيا، كافة المؤثرات التي تسهم في تكوين النص (وهي حق سكوناته) كالبيئة والتاريخ، حياة صاحبه ومزاجه، الخ. تفصله كليا عنها؟ فهو في نظرها لا يحيل الا الى ذاته، لا يقول الا ذاته. وهذا ما مكنها من وضع اسس تجعل من اللغة والانتربولوجيا والنقد الادبي لحد كبير، علوما دقتها يجب ان تحاذي دقة العلوم الطبيعية. الا ان علميتها لا تستنفد النص، لانها تسقط منه الجانب الاهم وهو فعل الكلام، اي من جملة الاحالة فكل كلام يقول شيئا ما عن شيء ما، كما تنص عليه بديهية ارسطو؟ ومن جهة اخرى الدلالة، فالكلام - كل كلام - يتجمع حول معنى هو الناظم لحركته، يحدد خط سيره. والواقع ان البنيوية - واسمها يدل عليها - اعتبرت النص - واللغة بشكل عام - من حيث هو (او هي) بنية، اي منظومة علائقية مكتفية بذاتها، فهي خارج اطار الزمان، وردته، لتدرك جانبه الموضوعي - العلمي بالمعنى الفيزيائي - للكلمة الى العناصر التي يتركب منها وهي الوحدات الصوتية والشكلية والدلالية.... مع ان الكل في فعل الكلام، كما في اي فعل انساني آخر، سابق على الاجزاء[1] وهذا ما دفع شومسكي الى الانطلاق من علم التركيب (النمو) ليعيد الى البنية ديناميكيتها اي قدرتها على الحركة فالتطور فابداع ذاتها. وبهذا كانت اللغويات التوليدية وقسمها الاهم وهو القواعد التوليدية واللغويات التحويلية اللتين تستقطبان اليوم العدد الاكبر من علماء اللغويات ينتسبون بشكل او بآخر الى تشومسكي[2] ولي عودة إلى هذا الموضوع.

والنص انتاجه في نظر جاك دريدا، فيليب سوليرز كريستينا..... وغيرهم من الملتفين حول مجلة (تل كل) الفرنسية[3]؟ ينتجه، كما يقول بول ريكور، فعل الكلام الذي يجعل من البنية منظومة، كما ترى البنيوية، ولكن دائمة الحركة والتبدل. وينطلق نص الانتاج في رأي مجموعة (تل كل) من رحم مولد هو الناظم لحركته ويتوضع في وحدات دلالية هي حيث تتجمع مفاصله - او بناه اذا شئت - التي يكشف عنها النقد الادبي. ويلتقي هؤلاء مع المبين (او يجب ان يكون كذلك). وفيه، لهذا فائض عن التحليل - لا على ما اسميه النص التحليلي - هو فائض الفعل - المبدع عن العناصر التي يستخدمها. كما فيه انفتاحا لا محدودا على الآخر وعلى الموجودات اناسا واشياء. انفتاح هو الذي يحرض الفكر (شاعرا كان ام فيلسوفا) على مواصلة البحث عن لقاء ما مع الآخر.

وتلك مشكلة الترجمة: انها ضرب من ضروب التأليف عليه ان يحاذي الآخر (الاصل الذي نترجمه)، ان يكون اياه، وان يكون في الوقت مبينا ببيان هو غير بيان الآخر.... واياه.

الدلالة مشكلة:

التواصل والحضارة متلازمان، كل منهما يتطور، كما وكيفا، مع الآخر. فالترجمة التي هي واحدة من وسائل التواصل الاهم ملازمة لهذا التطور، وتابعة له لحد ما: وهي، بسبب من ذلك، قديمة قدم الجماعات التاريخية. فمثلا نص ملحمة جلجامش السومري الذي بين ايدينا على شكل قطع متفرقة، باللغات السومرية، البابلية، الآشورية، الحثية والحورية، يرقى بصيغته الشفوية الى الالف الثالث ق.م وبصيغته الكتابية الى الالف الثاني. وترجماته ممتدة على الف سنة فيما يبدو[4]. ولدينا نصوص اخرى كثيرة اقصر من ملحمة جلجامش ولكن من مستواها بكل اللغات المذكورة وبغيرها ترقى الى تلك العصور الممعنة في القدم[5]، البنيويين - وهم بمعنى ما منهم في نقطة هامة جدا، وهي اعتبارهم النص مجموعة دوال الدلالة مفعول حركتها اذا سابقة - منطقيا - على الدوال او متعالية عليها، ليست من طبيعة مثالية كما يرى فريجة وهو سرد والعدد الاكبر من الفينومينولوجيين. هذا الخلاف على طبيعة الوجود الذي علينا أن ننسبه للدلالة هام في الفلسفة والعلوم الانسانية. ومع ذلك اقتصر على الاشارة اليه لضعف صلته بمشكلات الترجمة التي هي موضوعي.

والدلالة بعد - وهذا من صلب مشكلات الترجمة، كما سنرى - تتوضع في النص كله فهي حصيلته. والنص ينفتح انطلاقا منها. او هي حيث انفتاحه على الآخر وعلى العالم الخارجي الذي يحيل اليه. وعلينا ان نجد الدلالة - كلها او بعضا من اوجهها - في كل فقرة من فقرات النص: وهذا بديهي، فعندما نسأل عن معنى نص ما نقصد حالته (ما يقوله) وفكرته او قصده والدلالة تحفظ - اذا كان ثمة مجال لاستمرارها - في الكلمة التي هي مجمع دلالات وبوسعها ان تتسع لعدد غير محدود من الدلالات. يلاحظ بول ريكور بهذا الصدد ان الكلمة اقل من العبارة (الجملة): اقل لان الكلمة عنصر من عناصر العبارة وبالنسبة لهذه تتعين دلالتها. الا ان الذي يعطي الاولوية للكلمة على العبارة هو ان هذه - وباستثناء الحكم - لا وجود لها الا في النص - في حين ان الكلمة كيان خاص له وجوده وحياته. والمعجم يعتبرها كذلك عندما يحاول احصاء دلالتها.

اقول بشكل أعم: انا كلما جزأنا اللغة - نصا كانت ام عبارة ام كلمة - بارجاعها الى العناصر التي تتكون منها، تميل مع البنوية الى اعتبارها منظومة مغلقة ومكتفية بذاتها. وهذا هو الخط التحليلي بالمعنى الفيزيقي للكلمة. الا ان للنص وجها آخر هو الذي يعنينا عندما نقرؤه او نترجمه، واسميه الوجه التواصلي او بالاحرى الرسائلي. فعندما اكتب أؤلف كلاما اريده رسالة تتوجه الى الآخر. وهذا هو وجه اللغة التأليفي او التركيبي. والوجهان متلازمان ومتكاملان. الا انها ليسا متعادلين، كما يلاحظ بول ريكور. فالتأليف هو الشعر أو القول مما يدل على ان الترجمة بعد من ابعاد الحضارة الإنسانية. ولكن يبدو ان الانسان لم ينتبه الى صعوباتها الا عندما بدأ ينقل النصوص الفكرية الدقيقة من فلسفية ودينية وسياسية.... حيث قد تخرج الخطيئة الواحدة في ترجمة مفهوم اساسي، النص برمته عن معناه فتؤدي الى سبل لا تحمد عقباها. كما انها لم تتحول الى مشكلة

الا عندما بدأ العلم فالتقنية يصبحان من ابعاد الوجود الانساني اقصد مع ظهور الفيزياء الرياضية في القرن السادس عشر اول العلوم الدقيقة وفاتحة العلم الحديث. عندها تناولها العديد من أكابر الكتاب والمفكرين والشعراء فترجموا وسجلوا العديد من العقبات التي اعترضتهم وذللوها. اذكر منهم على سبيل المثال شيشرون والقديس جيروم، اراسموس ولوثر، حوته وشوبنهور، لكونت دو ليل ومالارمه[٦]...... وبوسعنا ان نضيف في ايامنا اليهم هيدجر الذي يكرس قسما لا يستهان به من تأليفه لترجمة شذرات من الفلاسفة قبل السقراطيين او من افلاطون وارسطو لاعتقاده انها تلقي ضوءاً جديدا على اصول الفكر الغربي وبداية تطوره.

الا ان الحضارة المبرمجة والتكنولوجيا التي هيمنت على العالم اعتبارا من اواسط هذا القرن، هي التي كشفت عن بعد الترجمة الاشكالي، ذلك ان استخدام الآلة - الحيادية في جوهرها - في اقطار المعمورة كلها على نطاق واسع وتسارع الاتصال بين الناس وحدا عالمنا لحد كبير وفي الوقت ذاته ابرزا الفوارق الدقيقة والعميقة التي تفصل بين أممه وشعوبه، ثقافاته وحضاراته. وهذه الفوارق، جلها ان لم اقل كلها، في اللغة او اذا شئت في الاداة التعبيرية، وبتعبير ادق فان التقدم العلمي والتقني المتسارع جعل الانسان يعي أكثر فأكثر الخطين اللذين يتنازعان من الاصل وجوده فردا وجماعة، وهما: الكلية والفرادة. فالانسان هو هو في اهوائه وغرائزه، في عقله وفي المعاني الناظمة لوجوده... لا يتبدل بتبدل الازمنة والامكنة. ومع ذلك فكل ثقافة، كل امة، وكل فئة اجتماعية، كل جيل.... كل فرد وجود فريد في نوعه، لا مثيل له ولا شبيه وهذا امر طبيعي طالما ان الانسان أساسا، موجود زماني. فمن جهة اللاعودة هي جوهر الزمان؟ ويجب من جهة اخرى ان يؤلف الزمان وحده، كلنا يتلمس طريقه اليها دون ان يدري ما هي ولا متى تتحقق. وهذا ما جعل نيتشه يستعيد في القرن التاسع عشر، عصر اكتشاف التاريخ والتاريخية، نظرية العود الابدي - او الزمان الدوري - التي ظن الفلاسفة انها انطوت الى الابد مع المفكرين القدامى في نهاية العصر الوسيطي.

والتقارب بين البشر، الحاجة المتزايدة لتفاهمهم جعلت في ايامنا من الترجمة مهنة، حرة او حكومية، لها مدارس تعلم أصولها، وقواعد تطبق، لها اختصاصات ومراتب، لها اتحادات تجمعت بعيد الحرب العالمية الثانية في اتحاد عام أممي، انضمت اليه اغلب أمم العالم المصنع والعديد من امه غير المصنعة. وللاتحاد مجلة (بابل) كما ان لبعض الاتحادات نشرات ومنشورات وصارت للمترجم حقوق تسهر على حفظها الدول المتقدمة سهرها على حقوق المؤلف كما صارت للمهنة ضوابط تنظم علائق المترجم بالذي يستخدمه أو يشتري ترجمته والكتب التي تترجم كل عام في العالم بالالوف، اما الدراسات فباعداد لا يمكن احصاؤها.

ويطرح تحول الترجمة الى مهنة على الفكر الانساني الثنائية التعارضية السابقة بصورة سؤال عن طبيعتها: أهي علم - والعلم كلي - ام فن - والفن فردي -؟ فبعض علماء اللغويات يحاول ايجاد قواعد تجعل منها علما في حين يميل المحترفون الى الشق الثاني من السؤال. فأدمون طاري - وهو من مشاهيرهم اليوم- يقول «ليست الترجمة الادبية عملية لغوية بل ادبية. والذي يترجم شعرا عليه ان يعرف كيف يكون شاعرا»[٧] الواقع انها الاثنان معا ولكن اين ينتهي العلم واين يبدأ الفن؟ ما درجة علمية كل ترجمة ودرجة فنيتها؟....

ان علماء اللغويات الذين بحثوا من كليات لسانية تبرهن على وحدة الفكر الانساني وتضع الاسس النظرية لترجمة علمية لم يحققوا حتى الآن نتائج كبيرة ومع ذلك فثمة قواعد استخلصها المترجمون على الغالب من تجاربهم، تدرس وتحفظ وتطبق فتيسر على المترجم أمر ممارسته وايضا فان كل امة، كل ثقافة.... تعرف الآخر وتراثاتهم وتتمثل هذه التراثات عن طريق الترجمة. كما ان المترجم سبيل متميز للتفاهم بين البشر على كافة المستويات، منها والاجتماعية، العليا والدنيا... فممارسة الترجمة تثبت اذا ما يعجز الفكر النظري عن إثباته، كما تدل كل أمة، كل ثقافة.... على الفوارق بينها وبين الآخر. فلولا الوحدة، لما كان ثمة فوارق فالعكس صحيح. كل من الحدين إذاً ملازم للآخر، متفاعل معه وضروري له. كما ان فنية النص تستلزم علميته، وعلميته تستلزم فنيته.

والفاصل بين الوحدة والفوارق، بين العلم والفن هو حيث يجب علينا ان نبحث عن موقع مشكلة الترجمة، اي حيث تظهر الصعوبات التي قد تتحول الى اشكال.

الواقع ان المشكلة ليست في الترجمة ذاتها. فالقدرة على نقل نص من لغة الى اخرى تفترض الى جانب اتقان اللغتين، ذوقا وثقافة واسعة وممارسة تحول القدرة الى ملكة انها في اللغة، او بالاحرى في قدرة الانسان على انشاء اللسان نسخة دالة فيها يلقى الآخر لقاء يجب ان يقارن درجة الاكتمال الى أبعد حد ممكن: واللقاء قراءة قد تحاذي الموضوعية فقراءة هيدجر، بعد كثيرين من الاعلام منهم ديليز ونيتشيت، لمقتطفات من الفكر الافريقي، ان هي الا محاولة - الادق على ما أعلم - لربط حاضر الفكر الغربي بأخيه الأول (أو بما يعتقد هيدجر أنه الاساس الذي قام عليه)[٨] والترجمة ان هي الا طريق الى الآخر فاذا سئلت: أين تقع على الضبط مشكلة الترجمة لا اتردد في الجواب انها في الدلالة. اذ ان كل دلالة تستدعي قراءة، وكل قراءة خلافية.

ان النص، كما قلت، صورة وتصور لواقع معين يستوقفك يوما فتجمعه حول فكرة تعتقد انها تجعل منه كلا. وانطلاقا من هذه الفكرة التي هي معناه، تحاول ان تؤديه بكلام تريده مبينا فتؤنسه بنسبة ابانته. ونحن نشير بكلمة دلالة الى هذه الالسنة فهي الصورة والتصور، الفكرة والمعنى هي بالاحرى الفسحة التي يشقها النص من حيث أنها ذات اتجاه، ترسم مستقبلا اذا شئت أو تعد لما بعد النص.

والنص قراءة، فالترجمة قراءة أو استعادة القراءة الاولى في لغة أخرى.

ان الفرق بين النص والاشياء هو الفرق بين الانساني

واللاانساني. اما الفرق بين الاصل والترجمة فهو الفرق بين الذات والآخر، كل منها يفترض الاخر فهو اياه وغيره الترجمة - كل المشكلة في الفاصل هذا بيني وبينك. اذ ان الفاصل - أي فاصل - يستدعي قراءة تملأ فراغه أو تتخطاه وكل قراءة خلافية كما قلت لتوي.

وبالفعل فان الاحرف بذاتها رموز صماء قد ترسم مناخا ما أو صورة، كما رأى معلما زكي الارسوزي بعد افلاطون[٩] ولكن الا يحق للمرء ان يتساءل ما اذا كان هذا المناخ الصورة منها ام من القارىء؟ والجواب انه من القارىء هو الذي جعل سوسور يقرر بعد ارسطو ان الاحرف رموز تواضع عليها الناس، فهي اصطلاح. الدلالة تأتيه من خارجه وكذلك بمعنى الكلمة التي هي مستودع المعاني ان صح التعبير. بوسعك ان تفتح المعجم وتستعرض المعاني المختلفة للكلمة الواحدة ولكن ما المعنى الذي تنتقي بحيث تنسجم الكلمة مع سياقها؟ والعبارة مع النص الذي تبدأ به ومعه اللغة؟ الجواب عن هذا السؤال هو حيث التردد والخلاف... واحيانا الاشكال، أو هو حيث تتعدد القراءات فهل يوجد معيار هو بمثابة الحكم بين القراءات؟

ايضا وبتعبير أهم.

ثمة دلالة. فالنص الغير دال هذيان. وادب العبث، العبث دلالته... ولكن ما الدلالة أو ما طبيعتها؟ ما الوجود الذي ننسبه أو يجب ان ننسبه اليها؟ أين موقفها؟ ما هي على الضبط علاقتها بالموجودات، أناسا وأشياء؟ هذه الاسئلة طرحت مع بداية الفكر الانساني ومن الاصل أجيب عنها وتعددت الاجوبة الى حد التعارض الكلي الا ان طرحها هي واللغة مشكلة فاشكالا وجوديا (انطولوجيا) بدأ مع بدايات الفلسفة في النقاش التاريخي - الحاسم بين افلاطون والسفسطائيين. اقول عن هذا النقاش انه حاسم تاريخي لانه ما يزال يتكرر حتى اليوم بصور مختلفة رغم تبدل المعطيات والطروحات تبدلا كليا مما يدل على ان النقاش الاول كشف عن اشكال قائم في صميم الفكر من حيث ان الفكر علاقة بالاخر وبالاشياء.

فافلاطون صعد الدلالة الى حد جعل معه منها صورا متعالية على الموجودات، اناسا واشياء يقصد أنها قائمة بذاتها فهي المعقولية بالذات ولها ملء الوجود. وهي في نفس الوقت، مفاصل المرجع - (أي موجود - منها يستمد مقومات وجوده فيبين. كما أنها ايضا الناظمة لحركته، ففيها معناه، وهي المعايير - المطلقة التي تحكم على قيمته أي على درجة تحقيقه لحقيقته. فالعلم أو الفلسفة - (والكلمتان تكادان تكونان مترادفتين عند افلاطون) يقول، اذ يقول، هذه الصور أو المعاني[١٠] في حين لا تقول اللغة الا ذاتها ولا تحيل الا الى ذاتها، عند السفسطائيين، كما عند راكان الحداثة اليوم. فعالم الانسان - وهو عالم لغة برمته - مغلق على نفسه، قد لا تستطيع أبدا الافلات منه فنعرف شيئا ما مستقلا عنه.

وباختصار فان الدلالة مشكلة (اقصد وجودها وعلاقتها بالموجودات) طرحت، اول ما طرحت في حديها الاقصيين - اللا - دلالة (السفسطائيون أو كلية الدلالة (افلاطون).

في هذه المرحلة بالذات اثيرت، على ما يبدو، مسألة ما اذا كان ثمة لغة طبيعية - من طبيعة الاشياء - فهي المعيار الذي نحكم بموجبه على قيمة اللغات الاخرى التعبيرية والدلالية، أم ما اذا كانت اللغات مواصفات اصطلح عليها البشر للتواصل فيما بينهم ومع الاشياء أو العالم الخارجي بشكل عام. فحوار الكواتيلوسّ يعرض وجهتي النظر ويتردد بينهما ويبقى جواب افلاطون معلقا هل حسم ارسطو الجدل عندما قرر أن اللغة مجموعة رموز اصطلاحية؟ لا هو ولا سوسور فيما اعتقد، فقد أثيرت المشكلة بعد أرسطو أكثر من مرة وليس من المستبعد أن يستعيدها العقل في المستقبل فآفاق الفكر وتساؤلاته تفيض عن آفاق العلم وفرضياته وعن أجوبته المدعوة دقيقة ذلك أن المسألة في صميمها هي مسألة علاقة العالم الانساني الذي هو مجموعة دلالات بعالم الطبيعة الذي هو مجموعة أشياء - وفي الدلالة فائض عن الاصوات التي هي في عداد الأشياء، أو اذا شئت أيضا علاقة المدلول بالدال في لغة سوسور كما أن الترجمة هي علاقة عالمي بعالمك أو عالم الذات بعالم الآخر أي من طبيعة الانسان وان كان تقدم الحضارة وتعددها قد جعل منها مؤسسة اجتماعية والثنائيات هذه كالتي ذكرتها سابقا مرتبط دوما أحد حديها بالآخر ارتباطا ديالكتيكيا. وهذا الارتباط هو الاشكالي اذ هو حيث ينتهي الناجز ويبدأ ما هو في طريقة الى الانجاز حيث يقف الماضي ليبدأ المستقبل انه حيث الفعل، والفعل لغز الانسان.... وأشكاله.

اشكالية الدلالة بين علم اللغة والفلسفة:

لم تستعد المشكلة بشكلها الراهن أي من وجهة نظر اللغة حيث تتحقق (تصبح حقيقة راهنة بالنسبة للانسان) الصور والمعاني والأفكار الا في بدايات هذا القرن اذ حاول كل من هوسرل وسوسور صياغة مفهوم العلامة ومعالجته وهو من المفاهيم الاساسية في علم اللغة وفلسفتها، فتعريفه يحدد نظرة كل منها الى اللغة ذاتها والى الدلالة التي هي محور تأملاتنا في هذه الفقرة فسوسور يقول عن العلامة انها مزيج من الصورة الصوتية والمفهوم أو إنها كيان نفسي ذو وجهين الواحد موجه نحو الدال (الاشياء من حيث الانطباعات التي تتركها في النفس) والثاني نحو المدلول (المفهوم، فاللغة منظومة فوارق) وهي علامات.. والمنظومة تعريفا مكتفية بذاتها[١١] وهي «بنية» كما سيقولون بعد المؤتمر التأسيسي الذي عقدته عام ١٩٢٩ في أثينا حلقة براغ[١٢] وسوف يعرف هيلملسلث البنية بأنها كيان من التبعيات المتبادلة[١٣]. بهذا تكون اللغة قد امتصت كل ما يتجاوزها، أي الأشياء، وقد صارت دالا. والعالم الفكري أو المثالي وقد صار مدلولا، وكذلك الكلام بوصفه فعلا فرديا والتزمن أو حركة الزمان المتجددة باستمرار من حيث أنه انتقال من تزامن الى آخر أو من بنية الى أخرى ولهذا فان مفهوم الدلالة ليس من مفردات سوسور وان كان معناه حاضرا عنه بأشكال مختلفة. وسوف يقول عنه بعض اللغويين انه حصيلة مفعول حركة الفوارق بين العلاقات داخل البنية وبهذا تفقد اللغة كل ركيزة يمكن أن تتجمع حولها كالمفردات الأساسية أو العبارات التي قد تكون مفتاح النص.

ويكاد يكون مفهوم «العلاقة» عند هوسرك على طرفي نقيض مع مفهوم سوسور. فالعلامة كما يفهمها هوسرل، منفتحة على العالم الخارجي (كل علامة فهي علامي شيء ما كما يقول) وعلى الدلالة المتعالية (تنبثق من الأنا المتعالي) حيث تتوضح أو تتجسد، والعلامة عند هوسرل ليست مجرد مؤشر، بل هي أيضا تعبير على حد قوله، وبوصفها كذلك لها ماهية أي وجود جوهري[١٤] ويضيف جاك دريدا الذي لخصته - بمفرداتي - لعدم توافر المصادر الاصلية عندي:اذ نسأل: ما العلامة بشكل عام؟ تخضع مسألة العلامة لقصد انطولوجي ما ويعقد لتوه بصيغة الشروط الفرنسية ليدلل على السمعة النقدية لكلامه: «ان تخضع العلامة للحقيقة، اللسان للوجود، الكلام للفكر والكتابة للكلام» فذلك نهج كلاسيكي، ويقصد ان هوسرل بقي رغم ثورته الفينومينولوجية، في اطار الموروث الفلسفي فلم يأت بشيء جديد[١٥]، والحكم الاخير صحيح، فهوسرل آخر واكبر ممثل لفلسفة الكوجيتو التي بدأت مع ديكارت والتي يطلق عليها هوسرل ذاته اسم فلسفة المحدثين، وقد يكون اخر ممثل للخط الفلسفي الذي بدأ مع افلاطون، او لفلسفة الماهيات، كما يقال اليوم، اما انه لم يأت بشيء جديد، فهذا شأن اخر ليس مجال بحثه هنا.

فالخلاف كلي - او يكاد - بين اللغوي والفيلسوف (والى جانب هذا الاخير العالم الاجتماعي)، وهذه (الكلية) كاشفة بالنسبة لموضوعنا كما سنرى فيما يلي فالفيلسوف والعالم الاجتماعي يسائلان النص - المركز حول الدلالة - حيث يبدو الفعل اللساني وقوته الخلاقة، كما يبدو القائل وقدرته على استنباط - او ابداع - دلالات جديدة تبذل الواقع في حين يبخر العالم اللغوي النص اذ يرد اللغة الى عناصرها المكونة او الى وحداتها الاصغر (الجزء الذي لا يتجزأ، كما كان العرب يقولون عن الذرة) ليتمكن من الوصول الى حقائق لها قيمة اليقين العلمي اي الى قوانين او ثوابت يستطيع، مبدئيا، اي انسان التأكد من حتمية وقوعها باعادة التجارب التي قام بها العالم، او باحداث الشروط التي مكنت العالم من الوصول اليها.

والواقع ان الخلاف في القصد، فالفلسفة تسائل اللغة عن القول الذي يقول الوجود، وعلم الاجتماع يسائل عن البعد اللساني او الكلامي للمجتمع، ما هو وما وظيفته؟.. والترجمة ايضا تسائل الاخر عن طريق اللغة بوصفها معا، كما سنرى، اما اللغويات فتسائل اللغة عن قوانينها أو عن كلياتها، كما يقولون اليوم حيث هي لغة الانسان بما هو - او بما هي - كذلك لا لسان هذه الامة او تلك، ولا كلام هذا الانسان او ذاك... وهذه الكليات هي التي تجعلنا نسائل علم اللغة في بحث عن الترجمة.

الا اننا لا نستطيع الركون الى اللغويات الحديثة وحدها، اية كانت كلية نتائجها، لا في تحليل اللسان وفهم بناد آلياته، ولا بالتالي في شتى المشكلات التي تعترض المترجم لان نظرتها لا تحيط بكافة اوجه اللسان، او لانها تعلن الدلالة، تردها الى شيء اخر وقد تلفيها وهي بهذا متماسكة مع ذاتها، أمينة لمنهجها، والدلالة التي هي روح النص، هي بالتالي حيث فرادته وكلمة ارسطو (لا علم الا بالكلي) صحيحة اليوم وغدا كما بالامس، ولكن الدلالة او الضرارة هي المطلوب نقله من لغة الى اخرى، وهي ايضا حيث مشكلات الترجمة كما قلت، ولهذا كان علينا، كي نستكمل نظرتنا للسان، ضمن الحدود الممكنة، ان نسائل الفلسفة وعلم الاجتماع، علم النفس التحليلي والنقد الادبي، وقد تسائل الكاتب.

ثمة علم للدلالة بدون شك هو، كما يقول جريماس احد اركانه «النسب النقير» لعلوم اللغة[١٦] فهو ما يزال بالفعل في بداياته رغم تقدمه النسبي، يقتصر على المنهج الوصفي والقطاعي اذ يدرس دلالات الاساطير والحكم الشعبية، السرد والتاريخ الخ[١٧]: والكشف عن القاسم المشترك بين دلالاتها وقد يقتصر على هذا المستوى، في حين ان قراءة الدلالة وبالتالي صعوبة ترجمتها تتأتى من تعدد مستوياتها، على اية حال فان المقارنة بين الخطين (اللغويات من جهة ومن جهة اخرى الفلسفة والعلوم الانسانية) ضرورية لطرح مشكلة الدلالة وبالتالي الترجمة وحدود امكاناتها، فلتواصلها بادئين بالمدرسة التوزيعية وهي الاكثر تطرفا بين المدارس اللغوية الحديثة في موقفها من الدلالة.

فبلومفيلد مؤسس المدرسة الذي ينتمي الى المدرسة السلوكية وريثة المدرستين الذرائعية والتجريبية والذي دفع بالمنهج العلمي الوصفي الى ابعد حدوده، يقول عن العلامة اللغوية انها كيان صوتي له دلالته، وعن الدلالة انها ما لا تستطيع ان نعرف عنه شيئاً[١٨]. والواقع ان بلومفيلد لا يلاشي الدلالة كما فعل خلفاؤه فهو يرى ان الواقعة الاساسية في علم اللغة هي الوحدة الدالة، لا بل يعين موقع الدلالة: انه المجتمع، في حين ان العلامة عنده هي بمثابة رد فعل عضوي على مؤثر خارجي يعبر عنه الانسان بالرموز، فبوسعنا ان نردها الى وحدتها الصغرى (الوحدة الصوتية - الوحدة الفردية - الوحدة القواعدية، الخ...) فالأصغر، ثم نحول هذه الوحدات إلى أشكال نخضعها للحساب فالمقارنة في جداول وخطوط بيانية، اما الدلالة فلا نستطيع ان نعرفها بدقة، اقله في حدود معارفنا الراهنة لانها حصيلة اوضاع او حالات المتكلم ومنطوق الكلام ورد فعل الذي يتوجه إليه الكلام، فإذا أردنا معرفة قصد المتكلم علمياً كان علينا ان ندرس علمه لحظة الكلام وهذا متعذر لان هذا العالم نتيجة عوامل كثيرة تلعب فيها الجملة العصبية والوراثة دورا اساسيا[١٩] فلا عجب ان كان خلفاؤه قد اسقطوا الدلالة من حسابهم ولو كان التجريديون عالجوا مشكلات اللغة كما تعالج اليوم أكان بامكانهم ان يقولوا شيئا غير هذا؟

والواقع ان الدلالة تربك علماء اللغة، فجريماس الذي كرس جل مؤلفاته لعلم الدلالة يبدأ دراسته عنها في كتاب مكرس لها اشرت اليه، بهذه العبارة «من الصعب على المرء ان يتحدث عن الدلالة ويقول شيئا معقولا» اي علميا[٢٠] وليست من مقولات سوسور كماكلف وهو لم يحاول ولا مرة تعريفها بله صياغتها كمفهوم سياسي، وعلى اية حال فان عالم اللغة يلحق الدلالة بشيء آخر كالبنية أو المجتمع، ويحاول استخلاصها في الموقع الذي وضعها فيه.

في حين انها عند الفيلسوف غالبا ما تكون قبلية متعالية،

قصدية ومعيارية حولها يتمحور التعبير الانساني أيا كان جنسه، فجرياس ذاته يربطها بالادراك ويجعل منها الخاصة الاساسية للعالم الانساني قائلا: انها كلية الحضور ومتعددة الاشكال[٢١] وقد يعد مدها الفيلسوف فيجعل منها مع افلاطون الواقع المعقول الذي له ملءُ الوجود والصورة التي تنـزع نحوها الموجودات الاخرى، اناسا واشياء، كما قلت، وايضا فان اللغوي يعتبر منظومة مكتفية بذاتها، او بنية مستقلة عن الاشياء، وبهذا يعلق، الى جانب الدلالة، الاحالة ويفصل اللغة عن الزمان والمكان، عن المتكلم والحركة فالتزمن ليس حركة متبدلة باستمرار، بل هو تفكيك البنية واعادة تركيبها مرة ثانية كما يرى سوسور[٢٢]، وتلك شروط علمية اللغويات الحديثة او البنيوية[٢٣] ويستخلص ديكورس اللغويات البنيوية وحتى شوسكي اربع مصادرات تقدم عليها. بول ريكور مصادرات يردها الى اربع:

١ - كون اللغة لغة لاكلام (فهذا فردي يتبدل باستمرار وهذا معناه استبعاد المتكلم).

٢ - منظومة لاسيرورة (ففي الحركة، فعلى العالم ان يكتشف منظومة ما خلف كل سيرورة).

٣ - كون اللغة مشكلا لا جوهرا.. شكل هو في الوقت ذاته مضمون، كما يقول ليفي ستروس في تعريفه للبنية[٢٤]، وبالاحرى شكل يمتص محتواه.

٤ - كون اللغة مغلقة، فاللغويات تستبعد القصد الكلامي الاول (ففي الاحالة والدلالة او استبعادها منهجيا على الاقل).

بهذا تصبح اللغة موضوعا (ما وضع امامك فهو مستقل عنك) او معطى - شيئا اذا شئنا - بوسع العالم ان يعالجه بالمناهج التجريبية[٢٥].

في حين ان اللغة هي عند الفيلسوف والعالم الاجتماعي والناقد الادبي، كما هي عند الشاعر والاديب، الفعل اللساني الذي به يشق المتكلم، فردا وجماعة فسحة فيها تستحيل الموجودات، اناسا واشياء تعبيرا، وهي ايضا حيث يلقى الانسان الاخر وحيث يلتقي الحي والخيالي بالروحي والفكري، او هي الفعل الذي يجسد به الانسان المعاني الناظمة لوجوده دلالات تجعل مستقبله حاضرا، يقول بول ريكور عن هذا الفعل - ويسميه قولا - انه حدث، وبوصفه كذلك يحطم انطلاق البنية ويطورها من الداخل.

والنص هذا هو موضوع رهان المترجم والترجمة ويتألف من ثلاث حلقات متداخلة ومتلازمة يطلق عليها ريكور اسم مستويات، وهي الكلمة والعبارة والنص ذاته، كل منها تحيل الى الاخرين، الا ان الكلمات الاساسية هي التي تتمحور حولها مفاصل النص، ولهذا يقول ريكور عن الكلمة انها اكثر من العبارة واقل: اقل اذ لا وجود لها بدون العبارة، والعبارة لا وجود لها بدون النص، اما الكلمة فتستمر، تعيش حياتها الخاصة، تتطور، تنمو وتتطور في النصوص او العبارات التي تستخدم فيها فتتراكم فيها الدلالات وتصبح بمثابة تاريخ لجانب من جوانب اللغة، ولهذا يستطيع المعجم ان يعزلها ويعدل معانيها[٢٦].

والقول عند هيدرجر هو الكلام الاساسي، قول الوجود، لا تدري ما اذا كان الشاعر والمفكر يقولانه ام ان الوجود ينطق بلسانها[٢٧]ا.

أما بالنسبة للعالم الاجتماعي فاللغة وظيفة اجتماعية[٢٨] فقيمة الكلام بمكانة المتكلم، وبالفعل فان مفعول عبارة تصدر عن زعيم سياسي في موقع السلطة غير مفعولها عند ما ينطق بها انسان عادي، ذاك يقيم الحد بين الخطأ والصواب، الحق والباطل.. يقرر مصير الجماعة، يبدلها.

أما الثاني فقد لا يتجاوز تأثير كلامه دائرة سامعية[٢٩]، ولهذا يأخذ بيير بورديو على سوسور فصله اللغويات الداخلية - اي التي تدرس اللغة بوصفها نظاما، ذاتيا[٣٠] عن اللغويات الخارجية التي تدرس اللغة في علاقتها مع كل ما هو غريب عن طبيعتها، فاللغة الى جانب كونها اداة تواصل، نتاج اجتماعي يطرح في التداول وتقدر قيمته بالقياس الى نتاج اخر، او الى سلعة اخرى إذا شئت[٣١].

مقاربات اولى من شكلات الترجمة

أقول ملخصا:

اللغوي ينتقل من الاجزاء الى الكل، وهو يعرف ان الطريق غير سالكة لان الكل تأليف - ابداع - وهو - بهذا سابق على أجزائه، وبدونه لا يمكن أن يفهم نظامها ولا حركتها الا أن طريقة ضرورية لليقين العلمي الذي يفترض الانطلاق من الوحدة أو الوحدات الأصغر (الجزء الذي لا يتجزأ كما كان العرب يقولون عن الذرة التي جزئت بعدئذ كما هو معلوم). ولا ندري - قد لا يدري هو - ما اذا كان بامكانه العثور على شيء من ذلك عندما ينتقل من الحدث الى الدلالة.

والفيلسوف، وكذلك العالم الاجتماعي والناقد الأدبي يسلكون الطريق العكسية - من الأجزاء الى الكل - وهم يعرفون سلفا أن الفعل الذي ينشيء النص يتجز - ككل ابداع - اذا حللناه - الطريقان مشروعان وضروريان لأن كلا منها يجب أن يؤدي الى قاسم مشترك بين اللغات كلها، والى حقيقة مستقلة عن هذه اللغة أو تلك.

ولكل منها حقيقته والحقيقة مع ذلك واحدة.

كلاهما ضروري لأن الترجمة، كما قلت وأقول أيضا، واحدة من المحاولات الأكثر جدية والأكثر نجوعا للتفاهم بين لبشر والتفاهم لا يمكن أن يتم الا في التلاقي على صعيد الحقيقة التي هي مبدئيا واحدة لدى الجميع.

قد يقال، وما شأن المترجم المحترف بكل هذا؟

ما شأنه بالخصومة بين أفلاطون والسفسطائيين التي لا تعينه الا جزئيا اذا كان يترجم نصوصا عن الاغريقية من القرن الرابع ق. م؟ وكذلك التعارض بين هوسرل دبلو سفيدد؟ انه يترجم وكفى، يكفيه أن يحقق الشروط التي تمكنه من اتقان مهنته - أو فنه - وهي بالدرجة الأولى، اجادة اللغتين ومعرفة الموضوع الذي يعالجه

النص، تلي المحاولات المتكررة لجعل النص المترجم أقرب فاقرب الى الأصل.

والمتكلم كذلك يتكلم ويكفيه أن يقول كلاما ملائما للسامع وبوسع هذا أن يفهمه.

بديهي أن هذا الاعتراض لا يلغي البحث العلمي عن اللغة والكـلام، عن الـترجمة والتواصـل بين البشر، لا يلغي الشرح والتفسير - والنقد الأدبي فلكل من الفعاليات الانسانية دورها في تكوين العالم الانساني. ومع ذلك فثمة أسئلة كثيرة تطرح في هذا المجال: علام يشرح البشر منذ قرون النصوص الأساسية كمقدمة ابن خلدون أو الشعر الجاهلي أو.. ويفسرونها وما يزالون حتى اليوم يعيـدون الشرح والتفسير ويختلفون حولها؟ عـلام ترجم النـاس أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وغيرهم من الأعلام وما يزالون حتى اليوم يترجمونهم ويختلفون حول الترجمة؟ علام تصطدم الترجمة بعقبات قد تجعلها أحيانا ممتنعة؟ علام لا يستطيع المفكر المدقق الاستعاضة عن الأصل بالترجمة ولو كانت بمنتهى الدقة لا في النصوص الأساسية ولا في غيرها أحيانا؟

قد يقال: تتأتى صعوبات الترجمة غالبا من فقر اللغة المترجم اليها بالمفردات المستحدثة أيضا المصطلح، هدف المشرفين من العرب على شؤوننا الثقافية - هذا وجه من أوجه الموضوع، وهو الأسهل تذليلا بالقياس الى الصعوبات الأخرى على أية حال فان الفقر هذا عرض من أعراض «الداء» وليس الداء، كما سنرى أيضا.

وهنا أيضا تطرح عدة أسئلة: ألا يصطدم المترجم بعقبات في ترجمة العبارة يهون بالقياس اليها الفقر في المفردات المتخصصة - وغير المتخصصة أيضا؟ وكذلك في النص من حيث ضعف ابانته في اللغة المنقول اليها؟ أهم وأدق الا توجد عقبات أخرى لا من حيث الواقع، بل من حيث المبدأ؟ وهذا هو السؤال الذي يستدعي حقا التفكر ويستلزم جوابا ما عنه.

أقول مسبقا أن كل صعوبة تعترض اللغة - أية لغة كانت - عند الترجمة اليها، يجب مبدئيا أن تذلل، ما عدا استثناءات سأشير اليها فيما يلي، هذا اذا كان أصحاب اللغة المعنية مصممون على الافادة - قل: على تمثيل - نتاج الحضارات الأخرى. الا أن الحل ليس في الاصطلاح ولا إذاً من شأن الأكاديميات فهذه تقتصر على تسجيل ما تحقق، لا على تحقيق ما يجب أن «يسجل» والمصطلح بالمعنى الدقيق للكلمة لا يصبح مشكلة حتى بالنسبة للغات المتقدمة الا في العلوم الطبيعية عندما تبلغ نتائجها مرحلة التصييغ عندها تتولى هيئات البحث أو الهيئة المنتجة من هذا المستوى وضع الكلمات التي تتولى انتاجها. وعلى الهيئات المقابلة في اللغات الأخرى - لا الدوائر اللغوية - أن تجد المقابل. واذا لم تتمكن فهي اعتياديا تتبنى الكلمة الأجنبية وتلفظها بالشكل الذي يتناسب وايقاع أو طبيعة لغتها. وهذا ما كان يسميه أجدادنا تقريبا.

ان اللجوء الى الأكاديميات أو المجامع اللغوية لوضع مصطلحات ليدل على نضوب في الابداع. فأجدادنا لم يعرفوا الأكاديميات، لم يفكروا بها مع أنهم بدأوا الترجمة من درجات الصفر في المفردات الفلسفية والعلمية ونقلوا مع ذلك ما اعتقدوا أنه الأساسي لدى الحضارات المعروفة في أيامهم ولم تكن كلمة «مصطلح» من مفرداتهم المألوفة هذه المجامع صارت اليوم ضرورة. ولكن أيا كانت الفعالية التي تقوم بها لا يمكن أن تلعب الا دور المسعف أو البديل المؤقت. فكم وكم من الكلمات التي اقترحتها سقطت وهي تطرح في التداول والتداول هو المرجع الأول والأخير في الحكم على قيمة «المصطلح» فثمة قرابة ما يصعب تحديدها بين الكلمة والشيء هي التي تدفع الذوق العام الى تبني هذه الكلمة ورفض تلك.

وبتعبير أعم فان صعوبات الترجمة، أكانت في العبارة أم في الكلمة..، انما تشير، اذا زادت عن حد معين الى أن المستوى التعبيري الفكري للغة المعنية قد تخلق بالقياس الى ما هو عليه في اللغات الأكثر تقدما، والتي تطبع لسبب من ذلك المرحلة التاريخية بطابعها.

ان التخلف بشكل عام في الفكر ويتبدى في اللغة بصورة فقر في الدلالات. فالكلمات والعبارات تقول، عفويا، ما كانت تقوله في السابق. فاذا ما طلب اليها أن تقول الراهن بدا عليها الوهن. فالعبارة وان كانت دقيقة ترجمة أو تأليفا، باهتة أو مهلهلة قدرتها ضعيفة على الابانة أو التوصيل، تطمس التلوينات المرهفة حيث شاعرية النص ولهذا يلجأ المؤلفون في اللغات المتأخرة الى التقييم والتضخيم حيث الشحنة الانفعالية تحل محل الدلالة وتحدث لدى القارىء وهم البيان.

فالدلالة هي حيث مشكلة الترجمة، كما قلت، اذ تتوقف على دقة نقلها درجة إبانة لنص أو غموضة.

والدلالة ذاتها - حقيقتها، موقعها - اشكالية كما رأينا لتونا.

وبالفعل فان السؤال ما اذا كانت الدلالة - وسيان هنا سميناها معنى أو صورة أم فكرة... أم دلالة... قبلية، قصدية ومتعالية على التجربة (أفلاطون - بلومفيلد وغيرهم) ليس نظريا وحسب اذ أنه اذا كانت المعاني الناظمة لوجدنا وللمعايير التي تحكم بها على قيمة سلوكنا وكلامنا سمة الكلية، فالتفاهم بين الناس هو الأصل وسوء التفاهم عارض مهما طال. اما اذا كانت مرتبطة بالعصر الذي استخدمت فيه وبالجماعة التي تستخدمها، فالتفاهم بين الناس هو من نوع التسويات والحلول الوسطى. وكذلك الترجمة: أما أن تكون دوما تقريبية فهي ضرب من ضروب التسوية مع الأصل. واما - وفي الحد الأقصى - ألا تكون الا ترجمة واحدة وحدها صحيحة وما تبقى خطأ.

فلنترك جانبا الوجه النظري للموضوع - وهو من صميم علم الوجود بالمناسبة - لأن علاقته بالترجمة غير مباشرة، ولننتبه الى موقف كل من الناقد الأدبي والكاتب فالأول يشرح النص ويفسره وهو يفترض أن الدلالة منه كالروح من الجسد واحدة ومع ذلك فهي حاضرة في كل كلمة من كلماته وليست في أي منها وحدها. والثاني يعتقد عفويا. ان الدلالة هي في الوقت ذاته كلية وفردية، فيجب أن يفهم نصه كل انسان، ومع ذلك - فمعانيه منبثقة من جماعة محددة مكانا وزمانا هي التي أوصت به واليها يتوجه بالدرجة الأولى

وكذلك الانسان العادي في حديثه مع الآخرين من بني جنسه ومن الأغراب.

والدلالة هي حقا هذا وذاك.

فلو لم يكن لها جانب كلي لامتنع التفاهم بين الناس وأيضا بين الانسان وماضيه البعيد والقريب أحيانا. ولو كانت كلية وحسب لما اعترضت التواصل بين الناس صعوبات يتعذر أحيانا حلها ولصارت الترجمة آلية من حيث المبدأ. وبتعبير أدق فان المعاني، وان كانت كلية، فهي لا توجد الا متحققة في بيئة اجتماعية - تاريخية معينة.

لغز الدلالة، لغز الترجمة هو لغز التجسيد بين الخطين الكلاسيكي والرومانتيكي.

الا أن الكاتب يرجح - عفويا أيضا - أحد الخطين: المحلي أو الانساني حسب الموضوع الذي يعالج. وكذلك المفكر الذي يستلهم في نظرياته موقع أمته أو حضارته من الأمم والحضارات الأخرى والانعكاف شطر هذا الخط أو ذاك واضح على الخصوص في دراسات أوائل مفكري اللغة.

وجلهم أقرب الى فلسفة اللغة منهم الى علمها. فأرسطو وضع الخطوط الكبرى لعلم الوجود (الانطولوجيا) دون أن يتساءل ما اذا كانت صيغ اللغة الاغريقية ومقولاتها هي صيغ ومقولات الفعل الانساني أو لا؟ بل فرض - قل قرر - انها كذلك وانها تقول الوجود هو كما هو[٣٢] ومفكرو اللغة عندنا من ابن جني - وقبله - الى ذكي الارسوزي - وأحيانا بعده - اعتقدوا أن للغتنا ملأ البيان فهي النموذج الذي يجب أن تحتذيه اللغات الأخرى[٣٣] أو هي اللغة الطبيعية على حد تعبير الغربيين، أي أنها هي التي تدوي بأمانة كاملة أصوات الطبيعة وبنيتها.

وبالفعل فان الثقافتين الاغريقية والعربية هيمنت كل منهما في مرحلتها على ثقافات العالم المتحضر اذ ذاك.

ويأتي دور الثقافة الفرنسية بالنسبة لأوربا في القرنين السابع عشر والثاني عشر أو من ديكارت الى الموسوعيين فالثورة الفرنسية. وعلى سبيل المثال فان كتاب القواعد العامة المعقلنة (لبور رويال) الذي نشر عام ١٦٧٠ وقد اعتبر في حينه على أنه النموذج الأكمل لكتب قواعد اللغة وما يزال يعتبر حتى اليوم بمثابة حلقة أساسية من حلقات تطور علم اللغة، وهذا الكتاب يفصح في عنوانه عن مضمونه، فهو.

أولا - أسس فن الكلام مشروحة بطريقة واضحة وطبيعية ومن ثم المشترك بين كافة اللغات وفوارقه وأسباب كل ذلك.

وأخيرا وبالدرجة الثالثة ملاحظات جديدة حول اللغة الفرنسية.

والكتاب بمجمله منطقي يطبق مبادىء فلسفة ديكارت العامة على قواعد اللغة - أي لغة مبدئيا ومن هذه المبادىء التي هي وظائف الفكر عند ديكارت: التصور والحكم والبرهنة (أو المحاكمة).

ويتواصل الخط ذاته طوال القرن الثامن عشر. فيدفع به بعض المفكرين الى حدوده القصوى اذ يبحثون عن اللغة الأولى أو اللغة - الأم «اللغة الطبيعية أي التي تعكس بنية الطبيعة الانسانية منها اشتقت اللغات الأخرى فهي منها كاللهجات من لغة أصلية ويسميها لبنتس «لغة آدم»[٣٤]، ويسلك الموسوعيون الخط ذاته، الا انهم يبحثون بتأثير عن فلسفة كوندياك الحسية، عن الطبيعة المحسوسة لوظائف اللغة (والتي هي طبيعة الانسان) عوضا عن طبيعتها الفكرية[٣٥].

ذلك كان خط فلسفة الانوار التي اذ استعادت مسألة اللغة الطبيعية وصاغت مفهوم الطبيعة الانسانية وبحثت عن لغة مشتركة بين الناس (يقصدون اوروبا) يستخدمها على الخصوص العلماء وتحل محل اللاتينية التي كانت في طريقها الى الزوال، ويبلغ عصر الانوار قمة تطوره في مفهوم التقدم الذي كان أول من صاغة في اعلان الثورة الفرنسية لحقوق الانسان (بما هو كذلك).

ويبدأ رد فعل ألمانيا المجزأة على عصر الانوار الذي اعطى لفكرة سمة الكلية وعلى الهيمنة الفرنسية مع الحركة الرومانتيكية (بعد اواسط القرن الثامن عشر وحتى أوساط القرن التاسع عشر) التي أعادت لالمانيا هويتها وضمنت لها هيمنتها الثقافية - في اوروبا - مع أدباء وشعراء من مقياس جوته، شيلر، هولدرين، الخ.. وعلى الخصوص مع الفلسفة المثالية (نيتشه، شلنغ، وهيجل) وأيضا مع فلسفة اللغة التي تكاثر اعلامها من الالمان في تلك المرحلة وشددوا كلهم تقريبا الى جانب الوجه الانساني للكلام، على الوجه القومي، والحركة الرومانتيكية بالاصل حركة أدبية قومية طالبت باستعادة جذور الامة الجرمانية في القرون الوسطى - عصرهم الذهبي في زعم تلك المرحلة - الا انها أخذت شكلا شبه كلي عندما عمت أوروبا ومنها انتقلت تدريجيا الى العالم - في أواسط القرن التاسع عشر وبعده.

وعلى سبيل المثال فان هردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣) في كتيبه (أصل اللغات) رد هذا الاصل الى أربعة قوانين هي قوانين الطبيعة الانسانية، الثالث منها هو الذي يسترعي الانتباه، وهي:

الاول: اللغة من طبيعة الانسان بوصفه موجودا مفكرا.

الثاني: تقدم اللغة طبيعي، ضروري وأساسي من حيث أن الانسان موجود اجتماعي يتقدم باستمرار.

القانون الثالث: لم يكن بوسع الجنس البشري أن يستمر في عشيرة واحدة، واللغة كذلك، ولهذا تشكلت اللغات القومية.

وينص القانون الرابع على وحدة الانسان ووحدة ثقافته[٣٦] ويبلغ التعبير عن الخط القومي هذا أقوى وأعمق صيغة مع ويلهلم ثون همبولت (١٧٦٧ - ١٨٣٥) الذي يكتب: «من الممكن والضروري ان نرى في كل أمة، وبعد ان نكون قد حددنا كلا من شروط تكونها، مرجعا انسانيا، فرديا يستجيب لرسالة[٣٧] روحية أصلية باطلاق المعنى فكل امة مشروع خلاف أو قوة انشاء للثقافة والحضارة، ولهذا فأية كانت رفيعة المنزلة التي تضع فيها الفرد عبقريته، لا يستطيع القيام بعمل ناجح ومستمر الا بالقدر الذي تستشيره فيه روح امته، ويضيف بعد صفحة انا نلمس لمس اليد قدرة الامة الخلاقة في اللغة التي تعكس صورتها صورة الامة[٣٨].

الا ان همبولت لم يذهب الى ما ذهب اليه بعض خلفائه، ممن اعتبروا اللغة وجهات نظر في الوجود، كل منها مستقلة كليا عن الاخرى، مما يجعل الترجمة ممتنعة، فما بالك بنظرية كنظرية اشبنجلر التي تجعل من الحضارات وحدات مغلقة على ذاتها تعيش وتؤدي دورها ثم تهرم وتتوارى الى الابد؟ فهمبولت لم يهمل الوجه الانساني أو الكلي للغة، وبهذا المعنى يقول: ان في الانسان بما هو كذلك استعدادا مسبقا للغة، ويجب، لهذا ان يملك مفتاح كل اللغات، وهذا معناه «ان كل اللغات يجب أن تتضمن شكلا أساسيا واحدا» والفوارق ان هي الا في الوسائل التي يستخدمها كل إنسان[٣٩]. ويقول أيضا: ان الحضارة والثقافة على الخصوص مع تقدم العلوم والفنون تمحوان تدريجيا التفاوت بين الشعوب، وهمبولت وان كان سينسب الفردية أو الفرادة للامة، فهو ينسبها أيضا للجيل والفئة الاجتماعية، ولو عاش في أيامنا لنسبها للطبقة أيضا ولغيرها، من التشكلات الاجتماعية[٤٠].

ثم جملة عوامل جعلت فلاسفة اللغة وعلماءها يتكاثرون في ألمانيا الرومانتيكية، أذكر منهم على سبيل المثال ومن الاكثر شهرة: الاخوين شلجل، غليوم فون همبولت والد ويلهلم[٤١]... وهذه العوامل هي: اكتشاف اللغة السنسكريتية وهي الارومة المشتركة للغات الهندية - الاوروبية، النظريات التطورية التي بلغت ذروتها مع داروين، روحانية المثالية الالمانية على الخصوص فلسفة هيجل... وبالدرجة الاولى نمو الثقافة الالمانية المتسارع الذي ستقوم عليه وحدتها السياسية - الاقتصادية عام ١٨٧١. فليس من المستغرب ان يعتبر المفكرون الالمان في نقاشهم مع الفرنسيين حول مقاطعتي الالزاس واللورين ماذا كانت لهؤلاء أم لاولئك، اللغة الاساس الذي تنهض عليه الامة، في حين رأى الفرنسيون هذا الاساس في ارادة العيش معا[٤٢].

الا أن أبعد مفكري اللغة في تلك المرحلة هو بدون شك ولهلم فون همبولت الذي يعتبره الكثيرون المؤسس الاول للغويات الحديثة، فهو في نظر شومسكي على ملتقى الطرق بين الخطين العقلاني (ديكارت وخلفاؤه) والرومانتيكي وهما في رأيه هنا خط واحد أو صلة، هو، الى غاية منتهاه ومعه توقف. واللغويات الديكارتية، ان هي الا بداية استعادة هذا الخط[٤٣]، وبالفعل فان همبولت هو أول من رأى في اللغة كيانا حيا خلاقا، موقعه لدى الانسان بين العالمين الداخلي والخارجي يتوسط بينهما فيؤلف بين المثالي (الكلي) والفردي، بين الحدس (الذي هو حسي) والمفهوم، كما رأى كنت، أو ليس المحسوس هو حيث يتحقق المعقول وباللغة ينشىء الانسان لذاته ولعالمه صورة هي مفاصل وجوده - في العالم[٤٤].

لغة أم لغات:

ركزت الرومانتيكية أدبها وفكرها حول فردية الموجودات وقراءتها فردية الامة والشخص، الثقافة والحضارة، الاعراق والمراحل التاريخية... فرادة الرأي والرؤية، فرادة ادراك الانسان للاشياء وحساسيته لها... فالكلمات التي نعبر بها عن شعورنا ومشاعرنا حتى وعن افكارنا الاكثر تجريدا ليست في بناها الصوتية او القواعدية بل بالطريقة التي نعبر عنها، او بالدلالات المرافقة[٤٥] لا بالدلالات الذاتية على حد تعبير علماء اللغة بحيث ان الكلمة الواحدة قد لا تعني اليك ما تعنيه الي. فما بالك اذا استقصيت عن معاني هذه الكلمة في الحضارات الاخرى أو في العصور القديمة والشواهد هنا لا تنتهي، يكفي ان نتأمل بسرعة في دلالات الكلمات الاكثر شيوعا ومنها على سبيل المثال الصداقة والحب، الحشمة، الحياء، الخفر، الغزل.. او الملك، العرش، التاج، البلاط. وكلمة حصان عند الجاهلي غيرها كليا عند من لم يعرفه الا في سباق الخيل والفيل كما يلاحظ هيالمسيق بالنسبة للافريقي غيره كليا بالنسبة للذي لم يره الا في السينما أو في حديقة الحيوانات والامة تعني للعربي اليوم غير ما كانت تعنيه لاجداده (اتباع النبي كما ورد في لسان العرب) أو للغربي الذي يربط بين مفهومها ومفهوم الدولة والمؤسسات السياسية والاجتماعية الاخرى كذلك، ومنها الديمقراطية وسيادة الشعب، النقابة، والطبقة، الخ... والخلاف في استخدام العبارات أو على تفسيرها قد يكون احيانا أكبر بكثير من الخلاف على الكلمات فاذا ما دفعنا بهذا الخط الى أبعد حدوده، لا يمكننا الا ان نصل الى هذه النتيجة وهي ان الترجمة ممتنعة من حيث المبدأ.

ومن المفارقات التي يجب ان تستوقفنا قليلا هي ان اللغويات الحديثة او العلمية التي ظهرت بعد أفول الحركة الرومانتيكية بسنوات، وصلت أحيانا، رغم الاختلاف الكلي في الطريقة والرؤية الى النتيجة ذاتها، فمثلا جوست تريير يقول: اللغة منظومة - أو بنية - تنتقي من الواقع الموضوعي العناصر التي تمكنها من انشاء صورة عنه خاصة بها، كاملة ومكتفية بذاتها، فعناصر الواقع في لغة ما ليست هي ذاتها تماما، وبالصورة ذاتها في لغة أخرى. اذ أن هذه العناصر تنبثق من رحم بنيوي وحيد في جنسه، وان كان محددا بمعطيات الواقع التي بينها يقارن، يقابل، يميز، يربط... ولهذا فالدلالة النهائية لكل من العناصر محدد - على الضبط وفقط - بالبنية اللغوية الكلية ووظيفة كل من العناصر في البنية العامة[٤٦] هذه عينة من عينات كثيرة اختارها جورج مونين ليدلل بها على موقف جيل اللغويين الاوائل - ومنهم أيضا ورث، سوسر، مرسيل كوهين، هيالمسليق، الخ... من عملية الترجمة وامكاناتها المبدئية[٤٧] وأرى ان أشير الى موقف هذا الاخير الذي، اذ يرى «اننا لا نصل بالوصف المادي للاشياء المدلول عليها الى تحديد خصائص الاستخدام الدلالي المعمول به في جماعة ما.. بل يجب ان نقرنه بمقارنة مع المؤسسات الاجتماعية الاخرى، وبهذا يحصل اللقاء بين اللغويات وبقية فروع الانتروبولوجيا الاجتماعية، ويضيف ان دلالة الشيء الواحد تتبدل بتبدل الحضارة[٤٨].

وبتعبير آخر فان الاوائل من علماء اللغة اذ ردوها الى عناصرها المكونة - وهذا جانب أساسي من جوانب منهجهم العلمي - لم يعثروا الا على الوجه الفردي للدلالة حيث يمتنع الكشف عن الثوابت، فخلصوا من ذلك الى هذه النتيجة وهي ان الترجمة الدقيقة غير ممكنة.

لنلاحظ من وجه آخر ان نمو العلوم الانسانية وتزايدها عددا ودقة علمية، ليدفع المرء الى التساؤل ما اذا كان للانسان الاجتماعي والتاريخي والفردي لغة واحدة أم لغات، فكشوف ما قبل التاريخ وبداياته في منطقة الهلال الخطيب (كسومر وماري، آكاد وأبيلا واوغاريت، الخ) وكذلك تقدم الاثنولوجيا والانتربولوجيا بفروعها العديدة، وبالتالي تزايد معرفتنا العلمية لمؤسسات ولغات وتقاليد... الشعوب المدعوة تارة بدائية وطورا متوحشة والكشف الحاسم لفرويد عن اللاشعور وأيضا التواصل المتزايد سرعة وعددا.... كل ذلك جعل الناس يشعرون أكثر فأكثر بالفوارق الكبيرة بينهم وكذلك بالقرابات - كما سنرى - لا بل ان هذه الكشوف لتجعل المرء يتساءل ما اذا كان هو ذاته في صميمه موحد الشخصية واللغة أم متعددهما... وبالفعل يكفي أن يتراضى في الانسان عن حد معين التوتر النفسي - الجدي الذي يوحد سلوكه الواعي حتى يشعر وكأنه غريب عن ذاته. فما بالك بمرض عصبي كالفصام حيث تتحول الشخصية الواحدة شخصيات متعارضة بعضها مع بعض؟ ولقد بين علم النفس التحليلي بما لا يترك أي مجال للشك أن شخصيتنا السوية ذاتها تنطوي على مسافات متعددة، ومنها على سبيل المثال تخطيطية فرويد الثانية ومسافاتها الثلاثة: الهو - الانا - الأنا العليا. فالأنا الواعي الذي ينشىء فعله الأدب والفلسفة والعلم.. الدولة والمؤسسات الاجتماعية... نقطة تقاطع لقوى كثيرة هي التي تنطق عن طريق غير مباشرة بلسانه وتوجه سلوكنا. ويبدو اليوم لعلماء النفس التحليلي ان ما يسميه فرويد الهو والأنا العليا مجمع لغات وقوى (بالأحرى قوى - لغات) لكل منها خصوصيتها. وهذه القوى - اللغات هي التي يحاول سبرها النقد التحليلي في الأدب والفلسفة، في الكلام والسلوك الفرديين والاجتماعيين... وكان نيتشه قد سبقهم بنصف قرن ونيف عندما تجاوز في دراسته للفلاسفة نظرياتهم المعبر عنها منطقيا الى دواعيها الغير معلنة والغير منطقية.

ويلوح للعلم اليوم ثمة تشابه كبير، من وجهة النظر هذه بين الفرد والجماعة. فهذه تتكشف في الأزمات الكبرى وفي المنعطفات التاريخية، اذا لم تكن بمقياس تحدياتها، عن الظواهر المرضية التي كانت قبل ذلك كامنة في أعماق لاشعور كل منها. وأي فرق في عصرنا هذا عصر الوحدات السياسية - الاقتصادية الكبرى، بين الأمة المجزأة والشخصية الفصامية؟

وبالمقابل فكما ان التصور الحراري الملازم للموجود - أي موجود، شيئا كان أن انسانا، مؤسسة اجتماعية أم كيانا عضويا - تجعله يتفكك تدريجيا ويتلاشى، فان في الموجود أيضا قوة نفي لهذا التصور أو قوة انشاء ذاتية تصارع الفناء وتجعل بمقدوره في حالات عديدة، يعسر الى حد الامتناع توقعها، ترميم ذاته ومواصلة مسيرته الطبيعية السوية. ولهذا فمن السهل على فلسفات التاريخ التي تكاثرت في القرن التاسع عشر، شرح الماضي وتفسيره[٤٩]. الا أن توقعاتها قد لا تصدق - هذا اذا صدقت - الا جزئيا ولمدى من الزمن قصير بالقياس الى عمر المجتمعات الانسانية.

وكذلك العلوم يقابل فيها المنهج التحليلي. فهيالمسليف الذي سمعناه للتو يشدد على فرادة اللغة لارتباطها بجماعة معينة وبمؤسسات هذه الجماعة، يقول أيضا: «لا توجد خاصة في اللغة تسترعي الانتباه على غرار خصوصيتها الا كليتها» وهي التي تجعل التواصل بين البشر ممكنا. ويرد هذه الكلية الى جلة خصائص بدائية من جهة ومن جهة أخرى الى ما يسميه التمفصلات من الدرجة الأولى والثانية الملازمة للغة - أية لغة - بما هي كذلك[٥٠]. والواقع أن البحث عن الكليات قد شمل في السنوات الأخيرة أهم مجالات الواقع الانساني وعلومه، حتى لكأن تيار التحليل في العلوم يتبعه دوما تيار تأليفي يبرز الوجه الثاني للموجود. فثمة في نظر العلم اليوم، كليات فلكية وبيئية (الخصائص الموحدة أو البنى الكبرى للأرض - سكن الانسان - وفلكها كالسهل والجبل والنهر...) وأخرى بيولوجية (التركيب العضوي الموحد) وغيرها نفسية ورابعة سوسيولوجية وغيرها هي البنى العامة للتجربة الانسانية، ومنها الزمان والمكان والمسافة الخ.... والأعسر كشفاً عنه هو الكليات الثقافية لأنها تختلط مع الكليات الأخرى ومنها بالدرجة الأولى اللغوية والاجتماعية (كالسلطة والتربية، الدين والمحرمات...)[٥١] ولا أعرف في هذا المجال الا محاولة واحدة حقا ناضجة، وان كانت تقع تحت اعتراضات كثيرة، هي برهنة ليفي ستروس في كتابه المعروف (الفكر الوحشي) على وحدة العقل الانساني، فمقولاته وبناه الأساسية هي لدى الانسان المدعو وحشيا والانسان الذي كونته الحضارة العلمية[٥٢] ويعارض ضمنا هنا ليفي ستروس بسلفه ليفي برول الذي كرس كتابا للبرهنة على أن الفكر البدائي لامنطقي.

وتستلزم بنية العقل الموحدة بنى لغوية أيضا موحدة تدلل على أن الثقافة المتباينة الى حد التنافر أحيانا، مرتبط بعضها مع البعض الأخرى بمسرى على العلم أن يكشف عنها. وبالفعل فان البحث عن الكليات اللغوية - على الخصوص في الجانب المورفولوجي في اللغة (الصرف كما يقول العرب) كالاسم والفعل والضمير وزمن الفعل.. قد نشط في السنوات الأخيرة[٥٣].

ومع ذلك فالحصيلة ما تزال ضئيلة اذ من الواضح أن طريق الصعود أصعب مسلكا من طريق الهبوط. وهذا ما يلاحظه جورج مونين الذي يكثر هنا من الشواهد[٥٤] كما أكثر منها في الخط المقابل، ليختم كتابه الطويل نسبيا بهذه النتيجة - البديهية في نهاية المطاف - وهي الترجمة التي نادى باستمالتها بعض غلاة الحركة الرومانتيكية، ممكنة نظريا، من وجهة نظر اللغويات الحديثة[٥٥].

شومسكي واللغويات التوليدية:

الا أن أبعد مشروعات البحث عن كليات اللغوية مدى وأكثرها منهجية هو مشروع اللغويات التوليدية، فهو وان كان ما يزال في بداياته (ظهر كتاب اللغويات الديكارتية عام ١٩٦٦) فقد أحدث انقلابا جذريا في علم اللغة البنيوي اذ نقل نقطة انطلاقه من الوحدة الصغرى (العلامة، الصوت...) الى القواعد أي الى العبارة. وبهذا استقطب عددا كبيرا من الباحثين في اللغة، يدل عنوان الكتاب على مضمونه فهو موجز لتاريخ اللغويات، علما وفلسفة، من قواعد ومنطق بول رويال الى ويلهلم فون همبولت مرورا بالحسيين والموسوعيين وغيرهم من أعلام اللغويات في القرنين السابع عشر

والثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. ولكن لابراز المنطلقات التي وجدها شومسكي عند هؤلاء الأقطاب - وبالأخص همبولت - وجعل منها منطلقات مدرسته، وهو ينعت هذه الفترة الطويلة بالديكارتية، رغم أن القرن الثامن عشر كان في مجمله (وباستثناء ليبنز وسبينوزا ومالبرانش ومن جاراهم) أقرب الى خطلوك التجريبي منه الى خط ديكارت العقلي،، لا لأنه وجد عند هذا الأخير بدايات لغويات ما، فديكارت كان حذرا من اللغة يرى فيها واحدا من أسباب الخطأ[٥٦] كما سيرى ديريكسون، بل لأنها تبنت كلها، ضمناً أو صراحة تصور ديكارت للعقل، وقد رأى فيه أحسن الأمور توزعاً بين الناس، فلا يختلفون في حقيقته أو بنيته بل في الطريقة، أي في تطبيق مبادئه[٥٧]. أو بتعبير آخر لأنها استهدفت مع ديكارت الكلي - لا علم الا بالكليات كما يقول أرسطو - لا الفردي كما ستفعل الرومانطيكية التي هي في الاصل حركة ادبية. وما يقول ايضا بكارد هو ان الفرنسية والالمانية قد يكون لها الافكار والحاكيات ذاتها عن الاشياء رغم اختلاف الكلمات[٥٨] اذ ان العقل عند مستقل بافكاره الفطرية عن العالم الخارجي[٥٩] وهذا الاستقلال هو الذي مكن شومسكي من تعليم موقع اللغة، فهي، كما رأينا للتو، بين العالمين الداخلي والخارجي. هذا ما يراه شومسكي ايضا.

ولا يخفي شومسكي دهشته وأله من موقف اللغويين المحدثين الذين رفضوا التراث الكلاسيكي، لا بل ذهب بعضهم الى حد ازدرائه[٦٠]، مع انه يشكل، كما يقول هوايتهد الذي يضع شومسكي كلمته في مطلع كتبه[٦١].

الرصيد الذي ما تزال اروبا تعيش عليه. حتى الان. كما انه سيناقش الرومانطيكية لانها نقلت نسبية اللغة التي اعتمدها بعض اعلامها مبدأ، الى الذهن. مما جعل التواصل بين الناس - ومعه الترجمة - ممتنعا من حيث المبدأ[٦٢].

وهمبولت، عند شومسكي هو خلاصة وقبة اللغويات الديكاردية، دفع بمفهومها الاساسي قدرة الذات الخلاقة او المولدة (ومنه اللغويات التوليدية) - الى ابعد الحدود. وهي التي تميز الانسان عن الحيوان[٦٣]. فالحيوان آلة عند ديكارد، في حين ان الانسان يستطيع ان يستخدم الكلمات المحدودة استخداما لامحدوداً[٦٤] والخلق، ونموذجه الاكمل الفلسفة والشعر عند هومبرج، هو في شكل اللغة مقابل المضمون الذي هو الاصوات - الغير مفصلة (او المغفلة) - والانطباعات الحسية الغائمة. والشكل لغويا هو قواعد النحو وقواعد مورفولوجيا المفردات وتشكل الاسماء[٦٥].

يجد شومسكي في اللغويات الديكاردية، الى جانب مفهوم الحق، تميزه - هو بين البنية العميقة (الدلالة) للغة وبنيتها السطحية (الاصوات) الاولى واقع ذهني والثانية واقع مادي، وهو بمعنى ما التمييز بين المجرد والمشخص اذا شئت. ويستجيب لتمييز مورويال الديكاردي بين الروح والجسد، وايضا لموقف هومبل المسبق من السلوكيين - ومنهم بلومفيلد - اذ يرى ان ما يميز الكلام هو قدرته المستمرة على تجاوز المحرضات التي استدعت[٦٧]. وهذا يعني أن اللغة وجود فكري - روحي خاص قاعدته مادية.

واخيرا فان الفعل اللساني الذي هو فعل الذات الخلاقة اوحى لشومسكي، على ما يبدو لي، تمييزه المعروف بين الكفاءة والانجاز حيث الكفاءة هي امكانات الفرد ومؤهلاته، والانجاز ما يحققه منها. فالذي يتدرب على لغة غير لغته - الام يتعلم اصوات اللغة الجديدة ودلالاتها وكيف يقرن هذه بتلك. وبهذا يكون قد اكتسب كفاءة جديدة يحققها باستخدام اللغة المكتسبة (الانجاز)[٦٨].

فاللغة إذاً من ثلاثة مستويات: الصوت فالدلالة فالقواعد التي تعلمنا كيف نمازج بين الكلمات حيث يقترن الصوت بالدلالة ليؤلفا عبارة بها نفصح عن فكرنا. المستوى الاول يدرسه علم الاصوات الكلي، الثاني يدرسه علم الدلالة الكلي، الثالث يدرسه علم النحو (او التركيب) الكلي[٦٩]. علم الاصوات وحده تحقق لان عناصره معطاة. ان العلمان الآخران فالبحوث فيهما ما تزال في بداياتها وستكون طويلة وشاقة لانها حيث الخلق او التوليد. ولكن متى انجزتا فستكون حصيلتها علم القواعد الكلي. ويعرفه شومسكي بانه: دراسة الشروط التي يجب ان تجدها متحققة في قواعد اللغات الانسانية كلها.... وستكون هذه بمثابة البنية العامة للغة[٧٠] بما هي كذلك.

فالانطلاقة الديكاردية اي من الذات المفكرة (الكوجية) وبنيتها مكنت شومسكي من تحقيق غرضين هما اللغان شكلا منعطفا في تاريخ علم اللغة الحديث او البنيوي: الاول باعتبار اللغة اولا في قواعدها العامة (الصرف والنحو) حيث ديناميكيتها. الثاني الكشف عن البعد العمودي للغة بعد ان ركز السلوكيون - ومنهم بلومفيلد علم اللغة حول الصوت، ففادتهم دلالة، نقله شومسكي الى حيث الصواب وتجاوزها اي الى القواعد والدلالة.

وهذا ما جعله يمثل فصحة اللغة - الام - فبعد ان كان مع سوسور انتقالا مستمرا في العلامة من الدال الى المدلول صارت انتقالا من الكفاءة الى الانجاز اي الى الذات التي هي مصدرها.

ولكن الا يكون بهذا قد اقحم الفلسفة صراحة في علم اللغة؟ بلى وهو لا ينكر ذلك. فعلم اللغة شرح لا نص وحسب كما يقول[٧١]. وبالنتيجة ايوجد علم التصدير على الخصوص في مجال الانسانيات - لا ينطوي على فلسفة ما.

الفسحة اللسانية وتعارضاتها

ان اهم ما انتبهت اليه اللغويات الحديثة ما سوسور وبعد، هو ان اللغة، في بنيتها الذاتية، مسافة، قوامها حركة انتقال مستمرة وغير دورية من حد الى آخر يختلف عنه نوعية. فثمة عند سوسور دال من الاشياء ومدلول هو وجودها في الذهن او المفهوم. وهذه المسافة التوترية تبدأ مع العلامة وتميزها عن بقية الوحدات اللغوية. وتتبدل المسافة نوعيا بتبدل حديها مع شومسكي فتصبح انتقالا من الذات (الكفاءة) الى تحققها تعبيرا في العالم الخارجي (الانجاز).

واللغة بالاصل مسافة. او ليست احرفها مجموعة رموز تتجمع في صياغة فتستحيل كلمات تشير الى اشياء؟ وهذه، وان قد تكون بينها وبين الكلمات قرابة ما بشكل صورة مرئية او صوتية، هي اوضح في اللغات القديمة منها في اللغات الحديثة. هذه الصورة هي التي

شدد عليها بعض الباحثين ليقولوا بوجود لغة من طبيعة الاشياء فهي طبيعة اي تقول - او تقلد - الاشياء هي كما هي تماما، كالطنين لصوت الذباب والرنين لصوت الجرس، او كاللون الاحمر ثورة والابيض للطهارة...»[٧٢]. والذي فات هؤلاء هو ان الصور، ان وجدت قد تقول هذا الشيء او ذاك فالانتقال من الرمز الى الشيء ليس ضروريا بحيث نلغي المسافة بينهما كما لاحظ ارسطوفقارب الاصطلاح، ثلاثة وعشرين قرنا قبل سوسور.

والمسافة هذه هي التي مكنت همبولد - وغيره كما قلت اكثر من مرة من تعيين موقع اللغة فهي بين الذات والاشياء حيث تؤلف فسحة خاصة هي فسحة العالم الانساني.

وللغويين مذاهب في الانتقال - الاصل هذا لا مجال لذكرها هنا. ولكن لا بد لي من التشديد على واحد آخر عالجه جماعة البديع والبلاغة لان معه ننتقل من الكلمة الى العبارة، اي الى بداية العالم الانساني بالمعنى الدقيق للكلمة، هو المجاز. ويتم، كما يبدو للوهلة الاولى ضمن الكلمة الواحدة، وهو الذي يمكن المعجم من التمييز بين معانيها المجازية ومعانيها الاصلية. فنحن نقول مثلا نور القلب او النور الالهي (كما في فلسفات القرون الوسطى) اسوة بنور الشمس. بحيث ان النور الذي هو ظاهرة طبيعية انتقل منها - مجازا - الى النفس فالى ما بعد الطبيعة، او انتقل من المرئي الى اللامرئي.

الا ان الفلاسفة يرون غير ما يرى جماعة البلاغة والبديع. فبول ريكور يقول: المجاز كما «هو مفعول العبارة يتوضع في كلمة نقول عنها انها الكلمة المجازية». وهذا ما يؤكده بنفست اذ يرى ايضا «ان العبارة هي حيث الدلالة»[٧٣] اي حيث تتحقق فتصبح حقيقة الواقع. ويضيف ريكورد ما خلاصته: المجازة في الكلمة. ان في العبارة فديناميكي لانه يأخذ شكل ملامة جديدة بين المحمول والموضوع[٧٤] والواقع ان الكلمة هي هذا وذاك اذ يمكن ان نعتبرها مفردة مستقلة فهي مجمع الدلالات ويمكن ان نعتبرها كطرف في العبارة التي هي جملة علائقية، كما رأينا في فقرة سابقة.

والمجاز، في كل الاحوال، تجديد دلالي معه تبدأ الفسحة اللسانية التي تستكمل شروط وجودها مع النص. وهو لهذا، يستوعب بقية اوجه البديع كالتشبيع والاستعارة والكناية... ومعه وفيه يتحقق الابداع الشعري والادبي.. والفلسفي ايضا.

والفسحة هنا، كما في اي مجال آخر حقل قوي موجه او دال. تضيف اليها قدرة اللغة على استعادة العالم برمته تعبيرا، وبمعنى ما استيعابه. والقول هو هذا: الموجودات وقد استحالت بيانا. يمكن القول عن الفسحة اللسانية انها بنية يسبح فيها تعريف هيالسليف الذي ذكر «كيان من التبعيات المتبادلة». الا ان الدلالة تجعل من الفسحة اللسانية جملة اقالات ودلالات، تستحضر الاشياء، تستحضر الفسحات الاخرى، بمعنى ما توجدها. وكل وجود انساني. كما تستحضر بمعنى ما الآتي اذ تدل عليه، تشف عنه، تومي اليه.

والفسحة اللسانية هي التي تميز بالاصل بين ثقافة واخرى، بين لغة ولغة، بين مرحلة تاريخية والتي سبقتها او التي ستليها.... تميز بين مؤلف وزميله، بين نص ونص، بين متكلم وغيره... والتواصل، ان هو الا لقاء بين فسحتين، اكان هذا اللقاء بين فرد وآخر، بين جماعة وغيرها او بين الحاضر والماضي... والابداع هو لقاء بين الحاض والمستقبل. وهذا ما يجعلنا نميز بين قراءة الانسان لنص وقراءة غيره. هذا يرقى الى مستوى النص وقد يجعله اكثر ابانة، وذاك يهبط بالنص الى مستواه. فاذا بدلالاته تجمد وحجمه يصغر وافقه يضيق. هذا كان مع الاسف مصير تراثنا العربي عند قراء اليوم، وايضا مصير ماركس وغيره من اعلام التراث الغربي. وتلك هي القراءة في درجة الصدق.

والفسحة هي التي تمكننا من التمييز بدقة بين النص الشعري والنص التحليلي والكشف عن ديناميكية كل منها. فلا يكفي ان نقول عن الاولى انها مشخصة قوامها الصورة، وعن الثانية انها مجردة قوامها المفهوم. فكل منها يستخدم المفهوم والصورة على طريقته. والمفوم، ان هو الا مجاز بلغت صوره درجة الصدق، كما لاحظ نيتشه.

يقول مالرميه: «يبدأ الواقع الشعري حين يسمي فاليري البحر سقفا والمراكب حمامات»[٧٥] اي عندما يخالف الشاعر استعماله الكلمة معناها المألوف فيجعلها تقول ما لم تقله في السابق. وهذا هو المجاز الحي، ويسميه جانكهل «حياد» او «انعطافا»[٧٦] فالشاعر يعلق عالمنا الاليف لينعطف بنا شطر عاله لا يدري هو - وقد لا يدري ولا ندري ابدا - ما سيكون وكيف سيكون. وهذا ما اسميه جعل اللامرئي الى مرئي حاضرا في المرئي. ويستلزم كما يقول جان كهيل ايضا: «تحطيم بنية اللغة واعادة تأليفها»[٧٧]. وبهذا يشددها، اذ يعيد اليها توترا يكون قد تراخى بفعل الاعادة والمحاكة، ومع التوتر قدرتها التعبيرية. ويعيد الى الاشياء نضارتها، رونقها وقوتها الايحائية. فاذا بنا نرى فيها ما لم نره من قبل. فالشعر نظرة بكر الى الاشياء تستلزم جاهزية هي اشبه شيء بجاهزية التصور. فكما ان هذا يعلق وجوده، يلاشيه ليتحد بالذات الالهية، كذلك الشاعر يستغرق في الاشياء ويجعلنا نستغرق معه الى حد الاندماج[٧٨].

والنص التحليلي هو ايضا يجدد رؤيتنا للموجودات. فعالمنا بعد هيجل غيره قبله، وبعد ماركس غيره مع هيجل... اذ ان النص الفلسفي عند الاعلام، كالنص العلمي عند آنشطاين وده بريل... لا يقتصر على تفكيك الموجودات، اناسا واشياء واعطائها، اعطاء عناصرها اسماء مجردة. فهذا يتم في المرحلة الاولى من تكوين العلم وعلى الخصوص عند المبتدئين في الدراسة. بل يجمع الموجودات وعناصرها بحيث تؤلف رأيه للوجود تنتقل دفعة واحدة من العقل الى الخيال كالمشاعر والاحاسيس. والرؤية هذه كانت قد بدأت للفيلسوف في بادىء الامر صورة متخيلة حولها الخيال ذاته الى صورة ذهنية. فالدياليكتيك الهيجلي غير الافلاطوني، والماركسي غير الهيجلي... وثمة من انواع الديكاليكتيك ما في الموجودات من امكانات قراءتها وقراءة كبيرة بعكس قراءة الصغير تضيق الى حد الاختناق.

في البحث عن موقف مشكلة الترجمة:

قد يظن القارىء للوهلة الاولى اني افضت في حديث اللغويات فنسيت موضوعي او ابتعدت عنه. قد يكون الاعتراض صحيحا لحد ما. الا ان الغرض من كلامي لم يتبدل وهو البحث عن موضع المشكلة التي تواجهنا في عملية الترجمة. والترجمة صارت حاجة لدى الشعوب الاكثر تقدما. فما بالك بالشعوب التي انعزلت عن الفكر العالمي قرونا قد تفيض عن الستة عندنا؟ قلت من الفقرة الاولى ان مجال البحث يجب ان يكون النص كله بمجمله ومن هنا ننتقل الى العبارات والمفردات. والنص دلالة هي السبيل اليه وهو حيث تتجسد. فقراءته هي الكشف عن دلالته، والترجمة لا تختلف عن اية قراءة اخرى الا في نقطة واحدة - الا انها فارق جوهري - كون قراءتها يجب ان تستعيد النص برمته وتحاذيه جهد مستطاعا، في حين ان القراءة العادية تقتصر على تجميع النص حول دلالته - الام -. قد يعترض معترض قائلا: الدلالة هي الكلي، والكلي ما هو مبدئيا مشترك بين البشري اجمعين فنقلها من لغة الى اخرى يجب ان يكون سهلا من حيث المبدأ. وهذا ما يشير اليه بولريكور عندما ينقل عبارة جيرار جينيف عن اوجه البديع: «تترجم من حيث الدلالة» من حيث المعنى الى مجال الشعر، ويشرحها قائلا: المعنى هنا هو فائض الدلالة عن ذاتها[٧٩]. وهذا يعني ان الكلية بمعزل عن الفردي هو الدلالة عارية او عندما تأخذ شكلا مقبولاً (فكرة مجافدة) ولكن ما الذي يبقى من النص اذا اسقطنا من هذا الفائض؟ لا شيء، او هيكله وحده. وذلك هو الخطر الاكبر الذي تتعرض له الترجمة - تلك هي مشكلتها -: ان تفقد النص روحها التي هي ابداع دلالات جديدة انطلاقا من القديمة (المجاز الحي على حد تعبير بولريكور). وهذا ما يحصل للقرآن الكريم عندما يترجم الى اللغات الاجنبية. وبتعبير اقل دقة فان الكلي لا يوجد الا في الجزئي. والعكس صحيح فالاصوات والاشكال القواعدية تستمد لقاءها وديناميكيتها، لونها ونكهتها انجاز التعبير التي هي فائض الدلالة عن ذاتها ومنه تستمد الحركة والحياة والوجود.

فسؤال الترجمة وعن الترجمة هو: - بأي سحر ننقل الابداع من لغة الى اخرى.

وبالابداع او بالفائض يستحيل النص فسحة.

واقصد هنا بالفسحة المجال الذي يشقه الانسان فردا وجماعة لذاته اذ يحدد مراميه ويضع معالم الطريق اليه، حيث يعيش ويتنفس، يوظف رصيده ويكلمه فهي متناسبة مع قدرته الخلاقة. والفسحة ذاتية بالدرجة الاولى شعب يتفاعل مع التاريخ ويسهم في تكوينه فهو شعب حي وتاريخي.

بالنص يستقطب المؤلف الكلي او الانساني (الكلمتان هنا مترادفتان) ويزيده غنى - بنسبة عبقريته - اذ يجسده في لغة شعبه فيجعله ملكا له ولقرائه. والمترجم كذلك. فهو يجعل ما هو ملك للآخرين ملكا لشعبه وقرائه اذ يعيد ابداعه في لغته. فالترجمة لقاء بين فسحتين: الواحدة تتحدى فتتصدى لها كي تكون بمقياسها. وعلى المؤلف بلغتك أن يتجاوزها اذا تمكن وهذا ما جعلني اقول عنها انها لقاء - صراع.

فبحثنا عن موقع مشكلة الترجمة نقلنا من النص الى الدلالة حيث معناها، والدلالة نقلتنا بدورها الى الفعل الذي به ينشىء المؤلف - أو المترجم - نصه فعلا يستهدف الدلالة التي هي قصده، يستطيل نحوها ليضع يده عليها، وهي تفلت منه باستمرار، بنسبة الفائض الذي يمنحها اياها، اذ يحاول تجسيدها في لغته. وكذلك المترجم.

أقول بالمناسبة ان افلاطون استهدف في نظرية الصور تحقيق ما يعجز العقل الانساني عن تحقيقه، وهو العلم الكلي أو العلم الذي ترتد اليه كل العلوم. وتلك هي الانطولوجيا أو الفلسفة في نهايتها. أراد، بتعبير آخر، أن يجعل حاضرا أمام الانسان ما يعجز العقل الانساني عن استحضاره، أقصد مفاصل الوجود الكبرى حيث تتجمع وتتكثف دلالاته، ونقول عنها عندئذ انها المعاني الثابتة الناظمة لحركته.. وهذا هو معنى ما أسمي بالعربية خطأ نظرية المثل.

بهذا جعل افلاطون فسحة اللغة الاغريقية تتسع بحيث تشمل قضايا الفلسفة من أيامه وأكاد أقول الى أيامنا، وجعل لزاما على كل من يدرس الفلسفة أن يبدأ بالانصياع لمقولات الفكر الاغريقي.

والفعل والفسحة في صراع مستمر مع بعضها: هو يحاول جعلها أكثر انفتاحا، وهي بوصفها من الماضي، تحاول اكراه لغة المؤلف أو المترجم على الانصياع لمقتضياتها.

فالترجمة ليست إذاً نقل نص من لغة الى أخرى وحسب، فهذا وجهها السطحي وتعريفها التقني المبسط. وليست ايضا حوارا بين لغتين او ثقافتين وحسب. فهذا التعريف هو ايضا تعوزه الدقة. وانما هي، وكما يعانيها المترجم، لقاء صراع - لقاء لا يمكن الا ان يكون صراعا بين فعل وفسحة. فالفعل هو فعل المترجم به يحاول اكراه مفردات لغته وتعابيرها على ان تقول ما لم نقله لها قبل، وفسحة ثقافته على ان تنفتح لفسحة ثقافة اخرى وتحافظ في الوقت ذاته على طابعها وهويتها. هذا الموقع العسير - وهو موقع مشكلة الترجمة واشكالاتها - هو الذي يستمد منه المترجم اهميته في حياة لغة أو ثقافة ما. اذ ان الفسحتين متنافرتين تعريفا، كل منها ترفض الاخرى، كما ترفض الذات الآخر المغاير لها كلية وعليه مع ذلك ان يقيم بينها قرابة ما.... وبهذا يسهم مع المؤلف - وفي ظرف معين أكثر من المؤلف - في تطوير لغته، وثقافته. فالنثر العربي بعد الترجمات التي بدأت في القرن الثاني وامتدت اكثر من ثلاثة قرون غيرها بعده. يكفي كي نتأكد من ذلك ان نقارن بين كتب علم الكلام الاول (المعتزلة أو الأشعرية) والتأخري كشرح التعاقد النفسية للتفتزدني[٨٠]. لنلمس عن البر التبدل الجوهري الذي احدثته ترجمة ارسطو في الفكر العربي ذاته. ففي الكتاب الاخير يلاحظ القارىء اي لا يترك ادنى مجال للشك ان مقولات ارسطو وطريقته في البرهنة صارا جزءا لا يتجزأ من لغتنا الفكرية[٨١].

فموقع مشكلة الترجمة واشكالها هو حديث تلعب دورها في لقاء الحضارات، اي حيث تحاول اتمام فسحة ثقافية (اللغة المترجم عنها)، في غيرها مختلفة عنها او متعارضة معها يجب علينا كي نستكمل بحثنا في حدود المستطاع ان نحقق امرين.

الاول هو التعرف الى خصائص كل من النصين - الفسحتين

العربي والاجنبي في المرحلة الراهنة. الى العلوم انا نترجم اكثر ما نترجم عن لغات العالم المتقدم او المصنع والمبرمج.

الثاني ان نقارن بين الاثنين.

ان اول ما يسترعي الانتباه في هذا المجال هو ان خصائص نص الاسم المقترن واحدة او تكاد تكون واحدة في النصوص التحليلية ومتشابهة في بقية النصوص. في حين ان النص العربي في نصف القرن الفائت في انواع متعددة يمكن ردها الى ثلاثة: الاثنان الاولان - القديم والحديث - متباينان الى حد التنافر، فكل منها يرفض الآخر كما يرفض النهار والليل. والثالث - حيث العدد الاكبر من الكتاب - تسوية بين السابقين قد تعرض صاحبه - وكثيرا ما تعرضه - مهانة ولا ارى انها ناجحة لحد ما الا في النصوص التحليلية واحيانا في النصوص التي لا نموذج لها في تراثنا كالرواية والمسرح.

وللنص القديم - النموذج الاكمل في القرن العشرين مصطفى صادق الرافعي، عبد العزيز البشري وشكيب ارسلان (بالمناسبة امير البيان) - لهذا النص مواصفات معروفة منها: الايجاز، الفصاحة، الابانة، حسن السبك وقوته، متانة الترتيب.... وبقية الكليشهات، وكلها تستهوينا نحن العرب. الا ان ثمة سؤالا كبيرا يعترضنا عندما نترجم أو نؤلف (رواية مثلا) وهو: ايستطيع هذا النموذج ان يقول عندئذ ويبين؟ اي نظر على دقة الافكار؟ اذكر اني سألت المرحوم الدكتور اسعد اوقارب عندما كان يترجم (المادة والذاكرة)[٨٢].وكنت متأكداً من قدرته على الترجمة لانه يجيد اللغتين - ما اذا كان يجد صعوبات في نقل النص الفرنسي الى العربية، فاجابني دون ما تردد، الغريب في العبارة العربي انها تنطوي على ذاتها وتتوقع بسرعة في الترجمة، أي عندما نطلب منها ان نقول ما لم نقله. قلق في نفسي - انها كصاحبها ترفض الدخيل. هذا مع العلم ان كتابة سرغسن كلاسيكية وشعرية جدا، فالمشكلة ليست في المصطلحات إذاً بل في العبارة عندما تقحمها في طريق لم تسلكه.

والانواع الثلاثة من النصوص تقابل مواقف العربي الثلاثة المتواجدة في كل منا بنسب متفاوتة من الحضارة الحديثة.

الا ان كتابة النص الحديث ليست بالامر الهين. اذ ان الخروج دفعة واحدة على وعن النص القديم مغامرة قد تدمر الذي يجازف ويقوم بها. وبالفعل فان الاقبال المتزايد على كتابة ليس العدد الاكبر من الذين يجربونها معدين لها قد اغرق الصحف والمجلات والاسواق بنصوص شعرية ركيكة الى حد الابتذال. وربما انه قتل بعض المواهب الشابة الواعدة. وبالمقابل فان رغم قلتها من كسر فوق الحديدي الذي اقامته حول اللغة العربية المحاكاة ومحاكاة المحاكاة... والذي انقد العربي قدرته على الابداع.

وتلك هي مشكلة العربي في التأليف والترجمة - نضوب القدرة على التجديد.

ومع ذلك، يجب الا نمعن في اتهام النص القديم. فالمحاكاة بالاصل نتيجة لا سبب، كما ان العجز عرض لا جوهر. فالصراعات القبلية المتزايدة بين فئاتنا في الماضي البعيد نسبيا كما في الحاضر، اقامت سدا منيعا بين هذه الفئات عزل كلا منها عن الآخر. اضف الحصار الاجنبي الذي افاد من هذا الصراع المستمر والاحتلال العثماني الذي فرض علينا مجاراة حضارة كانت يومها ادنى من حضارتنا مرتبة في سلم الحضارات.... كل ذلك جعل العربي ينكفىء على ذاته، على ماضيه، على تراثه.... عله يصون ما تمكن صيانته من وجوده، عله يحافظ على الاساسي من ثقافته التي هي هويته. وتتطور هذه النزعة فتصبح انغلاقا ثم رفضا لكل ما هو اجنبي وتقديسا للذات مقياس القداسة فيه القدم. وتتحول عند بعضهم الى رؤية للوجود كاملة ومكتفية بذاتها هي اشبه شيء بميتافيزيقا كما يقول ادونيس الذي كان اول من حدد ابعادها، وهي عنده ثلاثة:

١ - غياب المؤلف الذي يقتصر على جمع وتصنيف اقوال المتقدمين.
٢ - التقدم الدائري بسبب من غياب المؤثر الخارجي.
٣ - اسقاط الزمان، فالرؤية بمعزل عنه والوجود الحق فوقه[٨٣].

النموذج واللانموذج.

النموذج واللانموذج أو ألكلام والكتابة:

وجدنا انفسنا مع النهضة (بداية القرن التاسع عشر) أمام نصين (قل امام عالمين): الموروث والاجنبي، اخترنا الاول وقلدنا الثاني، عمليا اخترنا ذاتنا (وجوهرها التراث) وانجازات الحضارة الحديثة - ذاتنا رفعناها الى درجة المطلق واعتبرنا الانجازات مقتنيات نتصرف بها وفق حاجاتنا، نسقط ما نشاء ونحتفظ بما نشاء. ونسينا - ننسى دوما - ان الملك بعد من ابعاد الوجود يرتكز عليه ويطوره في الصميم، وان الذات الاجتماعية سلسلة استعادات يوحدها استمرار فعل الاستعادة ذاته اي الفعل الذي به نستعيد موروثنا - نحدثه - وانجازات الحضارات الاخرى. فعلى الامة ان تلملم دوما شتاتها المعرض للبعثرة. وبالفعل فما ان يتراخى الفعل الموحد حتى يبدو الوهن على الجماعة، وعندما يقترب من درجة الصفر نكون قد تفرقنا شيعا وشعوبا.

والواقع ان النص الحديث يفرض ذاته علينا مع الادلة التي تغزونا بغزارة متزايدة، وهو لا يتجزأ منها، فنترجمه، ندرسه، نقلده... ونشعر بوعورة الطريق التي يفرضها علينا: انها غير معبدة، نشعر بخطره وخطر طريقه على شخصيتنا فنرتد الى الوراء، ننكفىء على الماضي: انه العالم الاليف، وهكذا نتأرجح باستمرار بين القديم الاقدم والحديث الاحدث، نقدم رجلا ونؤخر اخرى وكأننا نراوح مكاننا في حضارة متسارعة التطور لا ترحم المتقاعس. والكل يعرفون ان تطورنا متخلف سنوات عما يجب ان يكون عليه. الماضي أقوى منا. تلك حقيقة لا شك فيها. لسنا من مقياسه بحيث نستخدمه رصيداً. فهو يفرض ذاته على انه النموذج الامثل في كافة المجالات حتى التي لم يعرفها اجدادنا يجب ان نجد لها جذورا ما عنده.

صحيح ان الشعوب القديمة كاليونان والرومان، الصين والهند وغيرها في القرون الوسطى وبعدها كانت تعتقد ان حقيقتها المثلى في اصلها الاول المجهول تاريخه. ولهذا كانت ترفعه الى درجة المطلق

فتضعه فوق الزمان والمكان. فما بالك اذا كان الاصل المعروف والمحدد تاريخه كذلك؟ الا ان الشعوب المتقدمة - وهي متقدمة بسبب من ذلك - ان الانسان مستقبله وان العلم سيوفر لها مستقبلا افضل بكثير من الحاضر والماضي. كان ذلك في اواخر القرن الثامن عشر عندما صاغ فلاسفة الانوار في فرنسا مفهوم التقدم. ونحن ايضا صرنا تقدميين جدا. أو لم نعلن ذاتنا كذلك؟ والاسبق، رغم الاعلان (الاسبق تاريخا طبعا) هو الاكمل. او لا تلزم الانسان جرأة خارقة كي يخالف لسان العرب والفراهيدي؟ حتى الاديولوجيات الاكثر تقدمية، قول السلف عندها خير من قول الخلف. وندعي العلمية! وكلنا نعرف ان العلم تزداد حقائقه ارهافا تتبدل وقد تنقلب رأسا على عقب بين عشية وضحاها. اما (علمنا) فبمنطوقه الاول. ولا اجتهادا في مورد النص.

وايضا لان الماضي اقوى منا، ولاسباب اخرى ستلي للتو.

ثمة ملاحظة بدئيا يجب ان نأخذها بالاعتبار وهي ان العربية - اي عربية - اقصد كل من كانت العربية لغته الام، كانت - وما يزال لحد كبير - بدوي الخلق والاخلاق، البداوة، وهي بعد من ابعاد تركيبه النفسي - جسديا، تأكيد وهو في المدينة منذ قرون، مع الشعر الذي ما يزال جاهليا، يدرسه وهو بعد صغير السن، تأتيه اذا شئت مع مناخ الفروسية الذي يخلقه هذا الشعر، ومعه تستمر تقاليد وعادات الحياة القبلية. ويبدو لي ان بوسعنا تجميع قيمنا - المتعددة عمليا - حول عدد قليل منها قد تكون اهمها اثنتان: البطولة والحماسة والبدوي يستهويه التفوق في اي مجال كان، ينصاع لصاحبه ويجعل من قوله ومن عمله نموذجا يحتذيه. فلا اعرف في القرن العشرين امة غير الامة العربية اختارت اميرا للشعراء وآخر للبيان. ويبحث شعراؤها ومثقفوها حتى اليوم عن اجمل بيت قالته العرب أو قاله هذا الشاعر. ونحن اليوم، كما بالامس البعيد، ما نزال ضمنا نصنف قدماءنا ومفكرينا في مراتب هرمية، الاول في اعلى الهرم كما كان يفعل نقادنا القدامى في طبقات الشعراء والمتصوفة وربما عند غيرهم. ودلالات مفرداتنا وقواعد لغتنا وايقاع شعرنا... اليست ما صنفه الاوائل وقد اخذوه عن البادية؟ او ليس من المستغرب ان لا نقبل، ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين، استخداما لكلمة او لمعنى لها الا ما اجازه ابن منظور الذي يردنا اثني عشر قرنا الى الوراء. هذا التزمت له مسوغاته وهي بالنتيجة الحفاظ على الهوية العربية الا ان الهوية الاجتماعية ليست ماهية، ليست قائمة في المطلق. فيجب ان تتطور ضمن حدود معينة. كما ان النموذج ليس صنما. ونحن الم نحطم الاصنام منذ خمسة عشر قرنا؟ وعصرنا بدوره، عصر العلم المتطور والتقنية المتجددة نحطم ايضا النماذج كلها... ومع ذلك فنحن نستبقيها ونضيف اليها!.

وأيضا،

فان عصرنا انتقل في البلدان المتقدمة نهائيا، انتقل مرة ولكل مرة الى مرحلة الكتابة التي كان قد بشر افلاطون بهيمنتها في القرن الرابع ق.م. وسجل اعتراضاته عليها[٨٤]. فالعلائق الاجتماعية ينظمها القانون والسلطة اجهزة تعمل كلا والبحث العلمي تنهض به دوائر مغفلة. ونحن ما نزال بتركيبنا اللغوي - النفس في عصر الكلام، من قائله يستمد سلطانه فالعلائق الاجتماعية شخصية تتمحور حول الشخصية الأولى في الجماعة، وهذا يقيم الحد بين الخير والشر، بين الصواب والخطأ... وعنده العلم كله.

انتقل عصرنا الى مرحلة التحليل واللغة التحليلية والمعقولية التحليلية او عصر النماذج (الغير نموذجية) التحليلية. ونحن ما نزال في عصر اللغة الشعرية - قل بالاحرى الخطابية فالشعر المتردي يستحيل خطابة -. فالكلام المبخر يشحن قائله بالانفعالات هو الذي يقنعنا، يجرنا بالاحرى الى حيث نريد و لا نريد. والشعارات تحل محل الواقع فاذا لم نرددها بحرفيتها اتهمنا باللاواقعية ومرادفها الرمزية اذا لم يكن الاتهام ادهى من ذلك بكثير.

انتقل العالم الى عصر العقل ونحن ما نزال، ضمن حدود شؤون لدنيا ذاتها في عصر النقل، المسموع والمتواتر هو الصحيح اما الكتاب فنظرة العامة اليه سحرية (فيه سجلت المصائر) وكذلك الطالب يتوقع منه النجاح في الامتحان. وما عدا ذلك فهو تسجيل للكلام قيمته في اعادة القائه.

واخيرا فان البلدان المتقدمة تعيش في عصر استشراق المستقبل الى حد جعلها تعلق الماضي، واحيانا تلغيه. فالنص الحق هو النموذج (الغير نموذجي) التحليلي - الاجرائي يفكك شطرا محدودا من الواقع، يسبر امكاناته، يحللها ويدرسها بدقة ثم يعيد ترتيبه كما يريد ان يكون عليه هذا الواقع. اما نحن فلا قيمة للنص عندنا اذا لم ينقل له شبيه - او تكون له جذور ما - في الماضي. واذا لم نجد هذه الجذور استنبطناها بالاجتهاد.

هذه التعارضات الثلاثة (الكتابة - الكلام، اللغة التحليلية - اللغة الشعرية الخطابية المستقبلية - الماضوية) تشكل الفوارق الاساسية بين فسحة اللغة العربية التقليدية وفسحة ثقافة اللغات الحديثة. قد يقال اني دفعت بالنص القديم (في وضعه الراهن طبعا) الى ابعد حدوده، كي اصل الى الفوارق الحادة التي ذكرت. ربما. شخصية لا اظن. فالنص الاول كان، في اجازة، على درجة من الابانة بحيث يشف عن الواقع في ادق خلجاته او تفاصيله. اما في صيغته الراهنة فهو محاكاة محاكاة... المحاكاة. انه كركتور النص الاصلي. ولهذا تضيق فسحته الى حد قد تحاذ معه درجة الصفر. ويشعر بهذا الكاتب او القائل. فالاول يغدق النعوت بلا حساب على الاسماء يجعلها تنطق وتبقى مع ذلك صماء. والثاني يفخم صوته ويبدل نظراته بمناسبة وبلا مناسبة فلا يبقى عند السامع بعد زوال الكلمات سوى صداها يتلاشى في جو فارغ. ومع ذلك فما يزال له المفعول الاول في تكويننا نحن العرب اليوم كما بالامس القريب والبعيد. اذ انه، واية كانت ثغراته وأيا كان عدد النصوص الحديثة التي تتكاثر متزايدة اليوم في مقابله، ما يزال يحتفظ ولو شكلا بسمة اللغة الاولى التي متى تحققت ووضعت في مقابل النص الحديث جعلته هامشيا وبالفعل ان الذي ربته نصوص الجاحظ والأصفهاني وابن قتيبة او نصوص الشعر الجاهلي يعرف كم هي كبيرة قدرة لغتنا الانشائية تكوينية. فهي بجرسها القوي، بإيقاعها المتميز والمتمايزة اوقاته، بحركات الاعراب التي لا يمكن للانسان ان يقرأ نصا الا اذا

تعلم اصولها بقدرتها على الايجاز، بنموذجية خلعها عليها ترسخها في التاريخ... كل هذه الخصائص تستأثر بالانسان روحا وجسدا وتعيد تكوينه على صورتها ومثالها. وهذا كان شأن اللغات القديمة - لغات قبل الكتابة - كلها كالاغريقية واللاتينية، والصينية على ما يبدو. فاللغات الحديثة تبدو باهتة من هذا القبيل اذا قيست باللغات القديمة. الا أن اللغة القديمة لا يمكن مع الاسف ان تقول الحداثة وتبقى هي هي. فهذا كتربيع الدائرة. فلا يمكن للمرء ان يتحرر من الفسحة القديمةلانشاء اخرى الا اذا فجر الاولى من الداخل للركاكة والهلهلة والغموض او بالاسهاب فالتخبط في متاهة الافكار والمعاني المستحدثة والاساليب التي تؤديها. فليس من السهل شق فسحة جديدة في لغة عمرها خمسة عشر قرنا في الحضارة.

وبالمقابل فان للوضع الموروث نتائج خطيرة كثيرة اردها الى ثلاثة:

١) الشخصية العربية: ازدواجيتها،

٢) في الاداة التعبيرية: احلالها محل الواقع،

٣) في رؤية العربي للعالم، تشتطره الى شطرين: الواحد في الزمان والثاني فوقه، الواحد في النسبي والثاني في المطلق.

أذكر أن أحد المناضلين المفوهين أعلن يوما أمام عدد من المثقفين: «اذا لم يكن ثمة صراع طبقي فعلينا أن نخلقهم» وخلقناه... أو لم نعلنه؟ أو لم نعلن الحرب على البورجوازيين والاقطاعيين؟ كرر هذا القول أمام الناس بأشكال مختلفة، وجعلهم يكررونه في مناسبات عديدة.... يصبح حقيقة عند بعضهم على الاقل. بهذا تحل الكلمات محل الاشياء، تصبح هي الاشياء. اما الصراع ذاته في واقعه المعاش فشأن آخر. اذ ان الكشف عنه يحتاج الى دراسة طويلة يقوم بها متخصصون، وقد تؤدي الى نتائج لا تتناسب مع الاعلان أو مع القصد الذي أوحى به. وفي كل الاحوال فان العربي - عملي حسب ادعائه - النتائج السريعة وحدها ترضي غروره.

هذا ما اسميه النموذج الكلامي - الخطابي على الواقع ان يتطابق معه، أو علينا ان نقحم الاشياء فيه بقوة الكلمة السحرية. في حين أن النموذج (الغير نموذجي) التحليلي يساير في دراسته للشيء مفاصلة الذاتية ليتمكن من تبديله انطلاقا منها. ولهذا نطلق عليه اسم نموذج اجرائي، وهو يجعل، بما له من قوة اجرائية، العالم اليوم غيره بالامس القريب.

يدرس ادونيس قصيدة (باريس) لشوقي فيلاحظ ان الغائب فيها هو باريس ذاتها والشاعر. فهذا يتوارى ويواري موضوعه وراء ركام من المفردات والتعابير هي اعادة «نسيج الكلام القديم» وقد تحول لكثرة تكراره الى مجموعة كليشهات. ويضيف «ليس شوقي هنا ذاتا تتكلم كلامها الخاص، وانما هو ناطق بكلام جماعي مشترك. وهو كشاعر ليس موجودا في القصيدة بذاته وانما هو موجود في هذا الكلام، أي في انشائية الخطاب الشعري السلفي»، «وكأن باريس - المعنى والشكل، تستوعب، بل تذوب في هذا الكلام»[٨٥] شوقي، هنا وفي أغلب شعره مقلد بدون شك يقتصر ابداعه على اعادة ترتيب الكلام المألوف في الغزل والمدح والوصف وعلى ما يسمى اليوم «اللقطات»: هنا استعارة مبتكرة وهناك مجاز جديدة... وتلك محاكاة محاكاة... المحاكاة تنتج وهن الواقع. ربما ان ادونيس بالغ في إدانة ما يسميه «الخطاب السلفي». الا ان الحق معه عندما يضيف ما خلاصته: ان كلام شوقي ليس تساؤليا أو تأمليا ولا اخباريا، ليس مجال حوار أو مجابهة وانما هو كلام طقسي[٨٦] أو احتفالي على حد تعبير الدكتور حسام الخطيب[٨٧].

ولكن أليس هذا الكلام الذي علمونا، ونحن صغار، ان ندهش أمامه هو الذي ربى حساسيتنا فجعل من اللغة سدا منيعا يحجب عنا الأشياء؟ ولهذا تبدو العربية عندما نجبرها على أن تقول الحداثة كالعملة المعدنية الممسوحة على حد تعبير حسام الخطيب[٨٨] أو كالعملة الورقية التي فقدت رصيدها.

ولا نحطم اليوم - لا نستطيع أن نحطم - هذا السد لأن الرأي العام الشعري سابقا والتدريسي اليوم أعلن شوقي أمير شعراء القرن العشرين، بل نضيف اليه سدودا اخرى قد تكون أدهى من الأول على المدى البعيد.

والانسان يعرف بغريزته وعندما يكبر قد يعرف بعقله أنه تجاه عالمين لكل منهما واقعيته فعليه أن يتلاءم معه: اللغة والاشياء. فثمة ازدواج أساسي في شخصيته يضاف الى الازدواجيات الاخرى المعروفة أو الشبه المعروفة: الفصحى - العامية، الشعر الذي ما يزال رسميا جاهليا - الفكر الذي عليه أن يدرس الواقع بالاساليب العلمية الحديثة، وقد يفكر في لغة ويكتب بأخرى وثمة انفصام رابع هو بين القيم التي تعلمه اياها المدرسة بين واقع العلائق الاجتماعية الادهى هو اننا قد نخلع على الحد الاول من الثنائية الاولى والثانية والرابعة سمة القدسية فلا يجوز أن توضع موضع شك أو تساؤل، في حين نقذف بالحد الثاني الى الظلمات البرانية مع أنه هو الواقع الواقعي.

فلغة العربي لغات وعالمه عوالم.

واحد من هذه العوالم ثابت، مقدس، فوق الزمان هو اللغة الكلاسيكية والرسمية شعرية كانت أم ايديولوجية، وما تبقى متبدل يدور - يجب أن يدور - في فلك الاول، يرتد اليه، كما يدور النسبي في فلك المطلق ويرتد اليه.

ذلك هو عالم الكلام، ابتعدنا عنه في الواقع نحن العرب. الا أننا لم ننتقل بعد تماما الى مرحلة الكتابة. فمنزلتنا هجينة لأنها تسوية بين المنزلتين. أسقطنا جوهر الكلام واحتفظنا منه بالقشور وأحللنا هذه محل تلك.

أما البلدان المتقدمة أو المصنعة بتصنيع كامل فاستقرت في الكتابة مرة ولكل مرة. والكتابة تحليلية في جوهرها، شق فسحة للشعر فيها أمر اشكالي. والتحليل كالعلم الذي استخدمه وعممه لا يرحم. يخلع عن الموجودات، أناسا وأشياء، الهالة الصوفية - السحرية التي أحاطها بها العقل قبل العلمي، ويفككها، ينفذ الى أدق دقائقها لا فرق عنده بين الحميمي والصميمي كالصداقة والحب، وبين الاشياء المبتذلة، بين الجميل والقبيح، بين القيم السامية وعكسها، بين الأعلى والأدنى... الكل يجب أن يخضع

لمنطق صارم يلاشي بالنتيجة في الانسان انسانيته. فعلم النفس التحليلي الذي يرّقى الى أواخر القرن الفائت يلج الى همسات القلب الخفية التي نعتقد انها خاصتنا ويردها الى عوامل خارجة عن ارادتنا. واليوم تلعب هذا الدور العلوم الانسانية كلها المتزايدة عددا ودقة.

والكتابة أو المدنية، كما يلاحظ روسو، تزيل من الانسان العواطف الكبيرة كالحب والشفقة وتحرمه من الغناء. وكلها هي التي استدعت ظهور اللغة كلاما.

هذا الخطر كان افلاطون أول من لاحظه ونبه الى بعض من أوجهه الهامه. فالكلام عنده ذو سلطان يستمده من قائله. اما الكتابة فتركيب سحري (فرماكون) هجين لا أب له، يعتمد على الذاكرة فيخلق أشباه مثقفين[٨٩].

كان ذلك عند بداية انتشار الكتابة وحلول الكتاب الدنيوي محل الكتاب الديني.

وتحل الكتابة تدريجيا مع تعميم الطباعة محل الكلام فيستعيد الموضوع ذاته على ليالي الثورة الصناعية جان جاك روسو. فالكلام في نظره هو الطبيعة والحرية والانسان الحر. والكتابة هي المدنية والمجتمع مراحلها مراحلها / من الكتابة - الصورة الى الهيروغليفي. فالكتابة الصوتية الحالية/. وهي إذاً التجارة والعملة، العلم والفلسفة، التجريد والجبر والمكان المجرد (الاقليدي)، الدستور والقانون والتنظيم، فثمة سيطرة الجماعة على الفرد سيطرة كاملة[٩٠]. باختصار، الكتابة هي العبودية للجميع يجب أن ينقذ العقد الاجتماعي ما يمكن انقاذه منها[٩١]. ومن المعلوم ان روسو نادى بالرجوع الى الطبيعة وكان يود لو يتمكن الانسان من تحقيق هذا الهدف الذي يعيد له حريته. الا ان ما كان والتاريخ هو حيث اللاعودة.

على أية حالة فان أيا من افلاطون وروسو لم يدن الكتابة. فكلاهما كان كاتبا خلف لنا عددا كبيرا من الكتب، بل يسجل كل منهما موضوعيا ما يشاهده في عصره ويشير - بل يشدد - على الثغرات.

وتحل الكتابة نهائيا محل الكلام في أواسط هذا القرن مع الثورة العلمية - التقنية فالادب الكلاسيكي كان ما يزال كلاميا، على ما يرى رولان برت[٩٢]. اما الكتابة فهي أدب هذه المرحلة، ومفهومها حل محل مفهوم الادب. وتتكاثر متسارعة الدراسات التي تتصدى لها أقتصر منها على اثنتين لمفكرين معروفين كرسا جل تأليفهما لها، هما (علم الكتابة) لجورج دريدا و(الكتابة في درجة الصفر) لرولان برث. والاثنان، كافلاطون وروسو لا يدينان الكتابة انها مرحلتها التاريخية -. الا انها لا يكتان توجسهما أمام نتائجها التي لم تظهر بعد الا جزئيا، بالاحرى امام نتائج الحداثة التي هي بعد من أبعادها والتي ما تزال في بداياتها.

فجاك دريدا الذي يستند الى نص روسو المذكور ويكرس القسم الاكبر من كتابه لشرحه وربطه بمرحلته التاريخية، يبدي الملاحظات التالية يراها القارىء مبعثرة هنا وهناك:

١ - انهت الكتابة عهد المحاكاة، بالاحرى عهد الطبيعة نموذجا. فالطبيعي صار صناعيا أو مفتعلا كما يلاحظ روسو.

٢ - ألغت الكتابة الدال لحساب المدلول أو أحلت نهائيا المجرد محل المشخص.

٣ - الجبر الذي رأى فيه روسو الحد الاقصى لتطور الكتابة فأخافه، لم يكن الا بداية فالكتابة اليوم هي التصبيغ الذي قد ينهي الكتابة ذاتها[٩٣].

يكتب دريدا معلقا على روسو فيقول ما خلاصته: «اذا كان روسو لا يدين الكتابة الابجدية فلأنها ليست الأسوأ. فهي ما تزال تحتفظ بصلة مع الصوت (الحي أو البشري) وتحيل الى ذات ما حاضرة فيها، أو الى قائل ما متعال على الصوت. وبهذا المعنى فإن الكتابة الصوتية ليست الشر المطلق أو الحرف الذي يميت... ولكنها تبشر بذلك. وهو يبدأ عندما تزول الحروف الصوتية وتبقى الحروف الساكنة[٩٤] وذلك هو التصبيغ بشّر به ليبتس في نظريته عن (الخصائص الكلية) وها هو يتحقق. انه اللغة الصماء أو صم الكلام.

ويعتقد دريدا - وهذا ما يبشر به في كتاباته اللاحقة - ان الكتابة قد بدأت نهايتها ومعه نهاية الفلسفة الغربية التي بدأت مع الاغريق وآلت الى هوسرل آخر ممثليهاوأعظمهم شأنا. فالموضوع الذي ما برح حتى اليوم، على ما أعلم، هو تقويض صرح الفلسفة هذه من الأساس.

والواقع ان تعميم التصبيغ وتطبيقه في كافة مجالات العلوم، مما جعل الانسان - أي انسان - اداة مسخرة للذي يبدع التقنيات الطبيعية، ليخيف المفكر الغربي الذي يقف أمامه حائرا يسائل عن المصير.

ولا يخفي رولان بارث بدوره قلقه تجاه ظاهرة الكتابة التي صارت السمة المميزة للحداثة اذ انها لسان تصلب فله سمة الانغلاق بعكس الكلام المفتوح، والمعلقة دوما نتائجه. فلا تصلح أداة للتواصل. الا ان نظرته للكتابة نظرة أديب لا فيلسوف، فهو يرى فيها وظيفة في حين أن الاسلوب واللغة شيئان: الاول هو من شأن مرحلة تاريخية يميزها عن غيرها والثانية مجموعة مواضعات. اما الكتابة فخيار به يواجه الكاتب المجتمع الذي هو مع ذلك حيث غائيتها فالكتابة مزدوجة الوجه: من جهة اجتماعية ومن جهة أخرى مرتبطة بحرية الكاتب. الا ان حرية هذا الاخير تنتهي عند الخيار الاول أو عند نقطة الانطلاق، بعدها يصبح أسير خياره، اذ ان الكتابة تلتهم الكاتب على حد تعبير رولان برث ذاته.

أما العربي فليس قلقا على لغته كما يقول الدكتور حسام الخطيب[٩٥] ولا على ذاته أيضا، ومن ثم فان الانسان ابن مرحلته التاريخية، اذا خرج منها أخرجته من التاريخ، وجعلته تابعا لغيره يعمل لحسابه. فالخيار ليس خيار المرحلة - أنت فيها شئت أم أبيت - وانما اختيار الطريق اليها والترجمة طريق من جملة طرق أخرى، يفرضها الظرف الراهن على الأمم كلها، وهي، عند الأمم المتخلفة المدخل الى الحضارة العالمية، ونحن العرب نسبقها، وسنسلكها في المستقبل القريب أكثر فأكثر. فالكتب المترجمة يفيض عددها عن الكتب المؤلفة، على ما أعلم، والقارىء العربي يقبل، فيما

أعلم ايضا، على الكتاب المترجم أكثر من اقباله على الكتاب المؤلف، (بشكل عام طبعا) الا أن مقياس انتقاء الكتب للترجمة هو على الأغلب، الصدفة أو أفضليات المنتقي.... أو شهرة الكتاب المشبوهة غالبا، وأكثر ما يخيفني في الكتب المترجمة ليس بالدرجة الأولى سوء الاختيار وفوضويته، وان كان هذا محذوراً أساسياً - وانما سوء الترجمة أو عدم دقتها اذ أن كليهما يضلل القارىء فلا يمكنني شخصياً أن أركن إلى دراسة لموضوع غير عربي - وعربي أحياناً - أياً كانت درجة اتقانها اذا كانت مصادرها مترجمة عن لغة أو لغات أجنبية. ثمة مسافة تفصل دوما بين لغة وأخرى لا يمكن تقليصها كليا، الا ان سعتها في لغتنا أكبر منها بكثير في اللغات المتقدمة، وأعتقد ان السبب صار واضحا للقارىء بعد ما تقدم من شرح، لطبيعة فسحة النص العربي وللتعارضات الثلاثة التي تميزه عن النص الاجنبي المتقدم، يبدو لي أنه، أية كانت دقة المترجم، لا يمكن الا أن يبقى في خلفية ترجمته، أو في فسحة النص العربي شيء من سمات النص الكلامي أو الخطابي أحيانا.

ما من شك عندي أن الترجمات التي تكاثرت في السنوات الاخيرة قد ذللت شطرا لا يستهان به من الصعوبة. الا انها لا تستطيع ولو تضاعفت، ان تقضي عليها، الا انها - اي الترجمة - وجه من اوجه الفعل اللساني، اقصد الفعل الذي به ينشىء الانسان عالمه تعبيرا. وهذا هو فعل الوجود، انه كالوجود فعل كلي يتحقق كلا.

ويتلخص بالنسبة الينا نحن العرب في المرحلة الراهنة بالتعريف، الذي هو الهدف القومي للترجمة والتعريف. واقصد - ان تنطلق الحداثة عن موقع عربي. فالتعريب وحده قادر على ان يتجاوز الخطين اللذين يتنازعان العربي: محاكاة الماضي او محاكاة الحداثة. واقصد بالتعريف كافة مجالات الفعالية الانسانية ومنها السلوك اليومي. ولا استثني الا بعض نصوص ادبية مؤلفة قطعت شوطا بعيدا في انشاء حداثة عربية.

وهذا هو التخلف في واحد من تعريفاته الاساسية: ان نكون صدى للغير، الا تكون بيدك المبادرة حتى في تصرفاتك العادية. ونتساءل، بعد هذا، علام نتفرق شيعا تتصارع مع بعضها. وننسى ان الوحدة هي الانسان. والانسان ثقافته. والثقافة ابداعها والابداع مستقبل وانفتاح على المستقبل. ومستقبلنا هو الحداثة. ومن لم يكن مبدعا تسلم غيره زمام امره شاء ام ابى. وعبودية الماضي قد لا تقل خطرا عن عبودية الغير.

يبدو لي ان مفهوم الكتابة لا يزال عند الذين قرأت لهم عنه - وهم بعدد لا بأس به - عصيا على التحليل حتى في عصر يدعي أنه يكشف عن الزوايا الخفية في قلب الانسان يحمل الطابع اللغزي الذي رآه فيه افلاطون عندما اطلق عليه بالاغريقية اسم (فرماكون) فتحليل رولان بارث الذي لخصت بعضا من جوانبه، متعدد الانعطافات، مترف في التلوينات الى حد يصعب معه رده الى عناصره الاساسية. الا ان المؤلف، وبعد ان يحلل، الى جانب المفهوم، عددا من الكتابات، منها السياسية والروائية، الشعرية والثورية.. يكتب موضحا عنوان الكتاب كله في فقرة عنوانها أيضا يدل عليها وهو (الكتاب والصوت) فيقول ما خلاصته: هذا الكلام الشفاف الذي دشنته مسرحية (الغريب) لالبير كامو يحقق أسلوب في الغياب هو الغياب الامثل للأسلوب. انها لغة الاساسي تفصلها المسافة ذاتها عن اللغة الحية وعن اللغة الادبية بالمعنى الدقيق للكلمة. فالكتابة هنا ترتد الى ضرب من ضروب الصيغ السالبة تزيل السمات الاجتماعية والاسطورية للغة، وذلك لحساب حالة من الشكل حيادية أو في صيغة العطالة... واذا كانت كتابة فلوبير تتضمن قانونا وكتابة مالرميه تفترض صمتا ما هو مصادرتها... وكتابات أخرى يؤسس له وجود طبيعة اجتماعية، فالكتابة الحيادية تكتشف حقا الشرط الأول للكتابة الكلاسيكية، وهو الأدائية، الا أن الأداة الصورية هنا ليست في خدمة ايديولوجية مظفرة.... انها طريق من طرق الصمت. لقد أسقطت الكتابة هنا الأناقة والمحسنات اللفظية لأن هذين البعدين يعيدان الزمان اليها. فهي صافية كالجبر، بهذا انتصرت على الأدب .

هذا الكلام يحتاج شرحه هو أيضا الى عرض لمجمل فكر مؤلفه الذي رحل ولما يستكمله بعد، ثمة نقطة واحدة أقرؤها بوضوح فيه وهي أنه، هو أيضا يشير الى نهاية مرحلة من مراحل الأدب، هي نهاية مفهوم الأدب، وبداية مرحلة جديدة أسميها الحداثة، يتلمس اليوم المفكرون طريقهم اليها، وسوف يطول هذا التلمس.

السياسة الثقافية
أو فعل التعريب

ورب معترض يعترض قائلا: «اذا كانت الكتابة تلاشي الانسان فعلام لا نبقى على ما نحن عليه؟ ولكن أهو موجود الانسان في العالم المتخلف، كي نخشى ضياعه؟ ان الذي يعرف ضياعه ويكشف عن أبعاده هو الذي يستطيع تجاوزه يوما.

الهوامش

(١) راجع بول ريكور، البنية ، الكلمة، الحادثة في كتاب (تعارض التفسيرات) صفحة ٨٠ وما يلي نشر سوي بباريس. حيث يفصل هذه الاعتراضات وغيرها على البنيوية.

(٢) عالج تشومسكي هذا الموضوع في كتب كثيرة قد يكون اهمها بالفرنسية (البنى النحوية) و (اوجه من نظرية النحو). وكلاهما من نشر سوي بباريس.

(٣) لمجموعة كتاب (تل - كل - حرفيا كما هو -) دراسات ضافية وكتب حول النص، لخصها (المعجم الموسوعي لعلوم اللسان) لايكرو وتود وروف نشر سوي بباريس صفحة (٤٤٣) وما يلي.

(٤) راجع مقدمة غابد غزويا لترجمته لملحمة جلجامش الى اللغة الفرنسية مع نص الملحمة الكامل بباريس ١٩٧٩.

(٥) لقد جمعت أكثر من مرة نصوص سومر وماري واوغاريت وغيرها من المدن - الدول الكبرى في الشرق الادنى حيث بدأت الحضارة وترجمت الى لغات كثيرة. راجع على سبيل المثال بالفرنسية (ديانات الشرق الادنى - نصوص وتقاليد مقدسة) باشراف رينه لابو، نشر فايار بباريس.

(٦) راجع جين موتين، المشكلات النظرية للترجمة، غاليار، باريس عام وقد اعيد نشر الكتاب كما هو ومرة أو مرتين.

(٧) جورج برنين المرجع السابق ص١٣ - ١٤.

(٨) من الصعب هنا الاحالة الى دراسة محددة من دراسات هيدجر اذ كلما تقرأ واحدة من دراساته فلا تقع على تفسير - ترجمة لواحدة من مقولات

الفكرة الاغريقي الاساسي وكيف تحولت بالترجمة الى اللاتينية ومن ثم الى الالمانية فصارت مقولات الفلسفة اليوم.

(٩) المقصود هنا أفلاطون الكراتيلوس (وهو حوار غير مترجم الى العربية على ما أعلم) أو أفلاطون الشباب الذي علق في نهاية الحوار البحث في قيمة الاحرف والاصوات التعبيرية لانه عقيم، في حين وقع به زكي الارسوزي في كافة كتاباته الى حده الاقصى.

(١٠) ان نظرية الصور أو المعاني الافلاطونية - المدعوة خطأ في الترجمة نظرية المثل يجب ان تستخلص من مجموع مؤلفات افلاطون لا من الجمهورية وحدها. ويمكن للقارىء العربي ان يراجع حوار البرمنيذس (ترجمة المرحوم الاب فؤاد جرجي بربارة ونشر وزارة الثقافة بدمشق) حيث أكمل افلاطون بنقد دقيق قضايا الجمهورية. ولهذا الحوار الاخير أكثر من ترجمة الى العربية ادقها حتى الآن ترجمة الاستاذ فؤاد زكريا.

(١١) فردیناند ٥ سوسور، دروس في علم اللغة العام، نشر باير في باريس ١٩٦٦ الصفحات ٩٩و١٦٦ وغيرها. وللكتاب طبعات كثيرة كلها تمت بعد وفاة المؤلف بعناية ثلاثة مع طلابه.

(١٢) حلقة اللغويين التشيك اتسعت فضمت عددا من العلماء أشهرهم اليوم ياكوبسون وهي التي أعطت للغويات شكلها الراهن في أول وأشهر مؤتمراتها الذي عقد في فينا عام ١٩٢٩.

(١٣) جورج مونين اللغويات في القرن العشرين نشر المطبوعات الجامعية الفرنسية بباريس عام ١٩٧٥ صفحة ١٢٦ و(ريكور) المرجع المذكور.

(١٤) جـاك دريـد، الصوت والظـاهرة - مـدخـل لمشكلـة العـلامـة في فينومينولوجيا هوسرل المطبوعات الجامعية الفرنسية بباريس ١٩٦٧ صفحة ١٧ وما يلي على الخصوص ص ٢٥ - ٤٢.

(١٥) المرجع ذاته ص٢٥.

(١٦) جريماس (علم الدلالة اللغوية) نشر لاروس في باريس عام ١٩٦٦ ص ٦.

(١٧) راجع كتاب جريماس، (عن الدلالة) نشر سوي في باريس عام ١٩٧٠ حيث تجد نماذج من هذه الدراسات القطاعية وقد صدر مؤخرا قسمه الثاني عن دار النشر ذاتها.

- جريماس، علم الدلالة نشر لاروس بباريس ص ٦.

(١٨) أورده جريماس (علم الدلالة) المذكور ص٧.

(١٩) جورج مونين (اللغويـات في القرن العشرين) المـذكور ص١٢٠ عـلى الخصوص يجد القارىء مثل هذه الخلاصات في أي تاريخ من تواريخ علم اللغة الحديث. راجع على سبيل المثال القسم التاريخي من كتاب جولياجويو (اللغة هذا المجهول) نشر عام ٦٩ في باريس ص ٢٣٣ وما يلي، او ايضا (المعجم الموسوعي لعلوم اللغة) تأليف ديكرو دقو ووث نشر سوى باريس ص٤٩ وما يلي.

(٢٠) جريماس في الدلالة المذكور ص٣.

(٢١) جريماس (علم الدلالة البنيوي) المذكور ص٨.

(٢٢) سوسور، المرجع المذكور ص١١٧ وما يلي.

(٢٣) اللغويات الحديثة بنيوية كلها بشكل او بآخر على الخصوص منذ مؤتمر فينا عام ١٩٢٩ المذكور الذي اعتمد البنيوية منهجا يتوافق مع نظام اللغة وطبيعتها.

(٢٤) ليفي ستروس، الانتربولوجيا البنيوية - ٢ - ترجمة د، مصطفى الصالح نشر وزارة الثقافة بدمشق.

(٢٥) بول ريكور، المرجع المذكور ص83 - 82.

(٢٦) المرجع ذاته ص93 لم اتقيد بكل نتائج بول ريكور.

(٢٧) راجع بصورة خاصة هيدجر كتاب (في الطريق الى الكلام) وكتاب (مقاربات من هولدرلين) الى جانب الدراسات عن برمنيذس وهرقليطس وعن هولدرلين وقوقاليس وجورج تركل، كل ترجمات هيدجر الى الفرنسية تقريبا من نشر غاليا.

(٢٨) هنري لوفيفر (اللغة والمجتمع) ترجمة د/مصطفى الصالح، نشر وزارة الثقافة بدمشق، على الخصوص الفصل الاخير.

(٢٩) بيير بور ديو (ما معنى ان نتكلم) نشر فاما بباريس - القسم الثاني كله.

(٣٠) سوسور، المرجع المذكور صفحة ١١٧.

(٣١) ببير بوردیو، المرجع المذكور صفحة ٨و١٦ وما يلي.

(٣٢) راجع دراسة أميل بنفنيست (مقولات الفكر ومقولات اللغة) في كتابه (مشكلات اللغويات العامة) نشر غاليار بباريس ص٦٣ وما يلي حيث يحلل المؤلف بدقة مفردات أرسطو أو مقولاته وعلى الخصوص فعل الوجود وتصريفه في اللغة الاغريقية. وبهذا يكشف عن الجانب النسبي في الانطولوجياالأوسطية الا أن في هذا دليلا اضافيا على عبقرية أرسطو. ففلهم الوجود الذي وضح ما تمثل هذه الرتبة الى القمة التالية: يزال حتى الآن في أساس كل انطولوجيا أخرى، وهذا الانتقال من النسبي والفردي الى الكلي هو الذي يميز الباحث العبقري عن الباحث العادي.

(٣٣) راجع على الخصوص المجلدين الأول والثاني من مؤلفات الأرسوزي الكاملة وقد نشرت في دمشق باشراف لجنة خاصة. ففي المجلدين تتكاثر الشواهد التي يبرهن بها الأرسوزي على أن بوسعنا استخلاص الفلسفة والأخلاق والمؤسسات الاجتماعية.... عن تفكيك المفردات العربية ورد كل منها الى جذرها ثنائي الحرف حيث هي صورة صوتية مرئية.

(٣٤) المرجع ذاته صفحة ١٧١و١٧٣

(٣٥) المرجع ذاته ص١٩١

(٣٦) هردر، مبحث في أصل اللغة ونصوص أخرى الترجمة الفرنسية نشر أدبية في باريس، الصفحات ١٢٥ وما يلي ١٤٠ وما يلي ١٤٠ وما يلي ١٥٩ وما يلي.

(٣٧) بالاصل اللاتيني الاستجابة لنداء، وتترجم ايضا بكلمة دعوة، (ما يدعون الله اليه).

(٣٨) همبولت، حول لغة كافي في جزيرة جافا، ومقدمة حول تباين بنية اللغات له ان الانسان ونصوص اخرى، الترجمة الفرنسية نشر سوي بباريس بعنوان فرنسي حرفيا (مدخل الى التأليف عن الكافي «صفحة » - ١٧٤ ١٧٥ ومن الجدير بالذكر ان همبولت توفي قبل ان يكمل هذا النص الذي هو اكمل نصوصه.

(٣٩) المرجع ذاته صفحة ٤٠٤.

(٤٠) المرجع ذاته ١٧٤.

(٤١) روبينز، تاريخ مختصر اللغويات من أفلاطون الى شوسكي الفصل السادس بعنوان فجر الازمنة الحديثة ص١٣٦ نشر سوي بباريس، حيث يجد القارىء معلومات موجزة عن هؤلاء اللغويين وغيرهم.

(٤٢) راجع ساطع الحصري، ما هي القومية؟ دار العلم للملايين بيروت، حيث يستعرض هذه الموضوعات والمواقف ويناقشها.

(٤٣) شومسكي اللغويات الديكارتية تليه الدراسة عن الطبيعة الصورية للسان الترجمة الفرنسية نشر سوي بباريس، راجع بشأن همبولت الصفحة ٤٠ وما يلي.

(٤٤) همبولت، المرجع المذكور، الصفحات المذكورة سابقا والصفحات ١٥ - ١٦ ١٨٠، وايضا ٢٠، ٢١ من المقدمة الجيدة التي وضعها المترجم بيير كوسا لترجمته.

(٤٥) الدلالة الذاتية هي تشير اليه الكلمة اعتياديا أو معناها القاموسي، والدلالة المرافقة أو (الحافة) كما يترجم عبد السلام المسدى، في كتاب (الاسلوب والاسلوبيـة - نشر الـدار العربيـة للكتـابـة بتونس) هي التلوينات التي يضيفها المتكلم.

(٤٦) جورج مونين، المرجع المذكور ص٤٤ - ٤٥.

(٤٧) المرجع ذاته ٤٤ - ٥٠ وما يلي.

(٤٨) المرجع ذاته صفحة ٤٥ - ٤٦.

(٤٩) راجع على سبيل المثال آراء ابن خلدون في عوامل قيام الدول وسقوطها، ومراحل التاريخ عند كارل ماركس، ورأي توينبي في العامل الأساسي المحرك لسلوك الانسان وهو تحدي البيئة واستجابتنا له. وكلها صارت مألوفة للقارىء العربي.

(٥٠) جورج مونين، المرجع ذاته - صفحة ٢٠٤ - ٢٠٦.

(٥١) المرجع ذاته صفحة ٢١٤ وحتى نهاية الفصل صفحة 223.

(٥٢) ليفي ستروس الفكر الوحشي على الخصوص الفصل الأخير نشربلون بباريس.

(٥٣) جورج مونين، المرجع ذاته صفحة ٢٠٤ - ٢١٢.

(٥٤) يعيد جورج مونين اعتبارا من الصفحة ٢٢٣ وما يلي أغلب أسماء اللغويين الذي استمد منهم شواهده عند بحث خصوية اللغات.

(٥٥) راجع خاتمة كتاب حكمة ٢٧١ - ٢٧٩.

(٥٦) مبادىء الفلسفة لديكار.

(٥٧) الاسطر الاولى من رسالة الطريقة. راجع هذه الرسالة ترجمة جميل صليبا، من منشورات اليونسكو في بيروت.

(٥٨) ديكارد، تأملات في الفلسفة الاولى. الرد على اعتراضات هوبس.

(٥٩) شومسكي، اللغويات الديكاردية. الطبعة المذكورة. الصفحة ٦٨ - ١٠٥ الحاشية.

(٦٠) المرجع ذاته المقدم صفحة ٥.

(٦١) المرجع ذاته صفحة ١٣.

(٦٢) المرجع ذاته صفحة ٥٩.

(٦٣) المرجع ذاته صفحة ٤٠ وما يلي: حيث يلخص شومسكي نظريات همبلد ويعلق عليها ويرد ذكر همبلد في أغلب الصفحات وحتى اواخر الكتاب اللغويات الديكاردية.

(٦٤) الطبيعة الصورية للغة. وهو منشور مع اللغويات الديكاردية صفحة ١٤٠.

(٦٥) اللغويات الديكاردية صفحة ٤٢ وفي مواضع اخرى.

(٦٦) المرجع ذاته صفحة ٦٠ - ٦٣. وفي الطبيعة الصورية للغة صفحة ١٢٥ وما يلي وايضا صفحة ١٥٥ - ١٥٦.

(٦٧) الطبيعة الصورية للغة ١١٢.

(٦٨) المرجع ذاته صفحة ١٢٦ - ١٢٥ وفي أماكن اخرى.

(٦٩) المرجع ذاته صفحة ١٣٧.

(٧٠) المرجع ذاته صفحة ١٣٩.

(٧١) اللغويات الديكاردية صفحة ١٣٦.

(٧٢) عالج الموضوع افلاطون في واحد من حوارات الشباب، هو الكراتيلوس، ولم يصل الى نتيجة تذكر فختم المناقشة بكلمة ساخرة: نة جني يتلاعب بالكلمات. في حين اعتبر عدد من لغويي العرب ومفكريها من ابن جني الى الارسوزي القرابة بين احرف اللغة العربية والاشياء امر واقع.

(٧٣) بنفنيست، المشكلات العامة في اللغويات.

(٧٤) بولريكور، المجازر الحي صفحة ٢٢١ من الطبعة المذكورة.

(٧٥) اورده ريكور، في مجاز الحي ومالرمين يشير هنا الى قصيدة فاليري المعروفة (المقبرة البحرية).

(٧٦) جون كوهيل، بنية اللغة الشعرية، نشر فلامريون بباريس.

(٧٧) المرجع ذاته.

(٧٨) المجاز الحيى صفحة ٣١٤.

(٧٩) ريكور، المجاز الحي، الطبعة المذكورة.

(٨٠) تحقيق كلود سعدنة ونشر وزارة الثقافة في دمشق.

(٨١) ويصح في اللغة ما يصح في علم الكلام ففي الاثنين تختلف اللغة العربية عن النموذج الاغريقي كليا. وهذا هو التعريف بمعناه الاكمل. اما الفلسفة فولدت عندما صار بامكانها التحرر من النموذج الاغريقي. ومع ذلك فقد تمكنت اعادة صياغة مقالات ارسطو باعطائها معاني تتناسب مع المرحلة التاريخية.

(٨٢) نشرت وزارة الثقافة في دمشق هذا الكتاب.

(٨٣) راجع أدونيس وخالدة سعيد في مقدمتها لكتاب (الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب) في مجموعة (ديوان النهضة) نشر دار العلم للملايين صفحة ١١ - ١٦ لهذه الميتافيزيقا ابعاد اخرى يجب ان تدرس يوما بما امكن من الدقة.

(٨٤) الصفحتان الاخيرتان من حوار الفدرس، غير مترجم الى العربية على ما اعلم...

(٨٥) مقدمة ارونيس وخالدة سعيد لكتاب (أحمد شوقي) «نصوص مختارة». دار العلم للملايين سلسلة ديوان النهضة ص٨و٩.

(٨٦) المرجع ذاته ص٩.

(٨٧) العربي واللغة، ندوة الموقف الادبي شارك فيها كل من انطون المقدسي د.حسام الخطيب د.عبد السلام المسدي محمد صالح الجابري / مجلة الموقف الادبي العدد ١٤٠، كانون الاول ١٩٨٢.

(٨٨) المرجع ذاته.

(٨٩) حوار الفدرس المذكور. أيضا الصفحتان الاخيرتان.

(٩٠) روسو محاولة في أصل اللغات، الفصول ٥و٦و٢٠ على الخصوص الفصل السادس المخصص للكتابة. نشر سوي بباريس تصوير عن الطبعة الاولى.

(٩١) روسو العقد الاجتماعي، ترجمة عادل زعيتر من منشورات اليونسكو في بيروت.

(٩٢) رولان برث درجة الصفر في الكتابة، نشر غونتيه في باريس. للكتيب عدة طبعات متشابهة في ترقيمها صفحة ٤٥. وله ترجمتان عربيتان.

(٩٣) جاك دريدا، علم الكتابة، نشر مينوي بباريس. الصفحات ٤٠٣-٤٠٤-٤١٣-٤٢٥-٤٢٨ وفي أماكن أخرى. أما تعليقه على نص روسو فيبدأ في الصفحة ٣٩٧ ويستمر حتى نهاية الكتاب. اعترف بأني لم أتمكن من ذكر ملاحظات دريدا كلها وتعليقاته المفيدة، ولا من تلخيصها تلخيصا جيدا لأنها مترابطة مع فلسفته التي يضع خطوطها الكبرى في هذا الكتاب، وهو من أوائل مؤلفاته.

(٩٤) المرجع المذكور ص٤٢٨.

(٩٥) رولان بارت، الكتابة في درجة الصفر، الطبعة المذكورة، الصفحات ١٤، ١٨، ١٩، ١٧ وفي أماكن أخرى.